

AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY

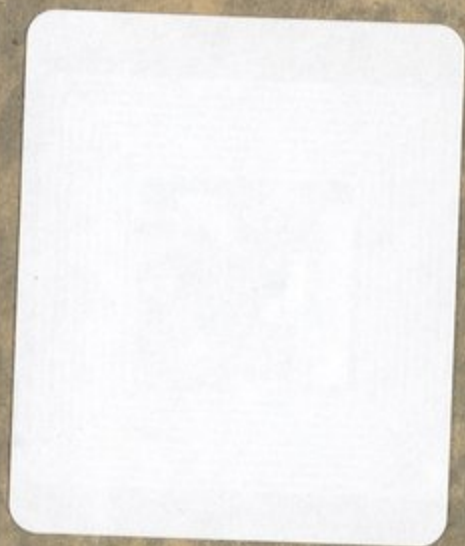


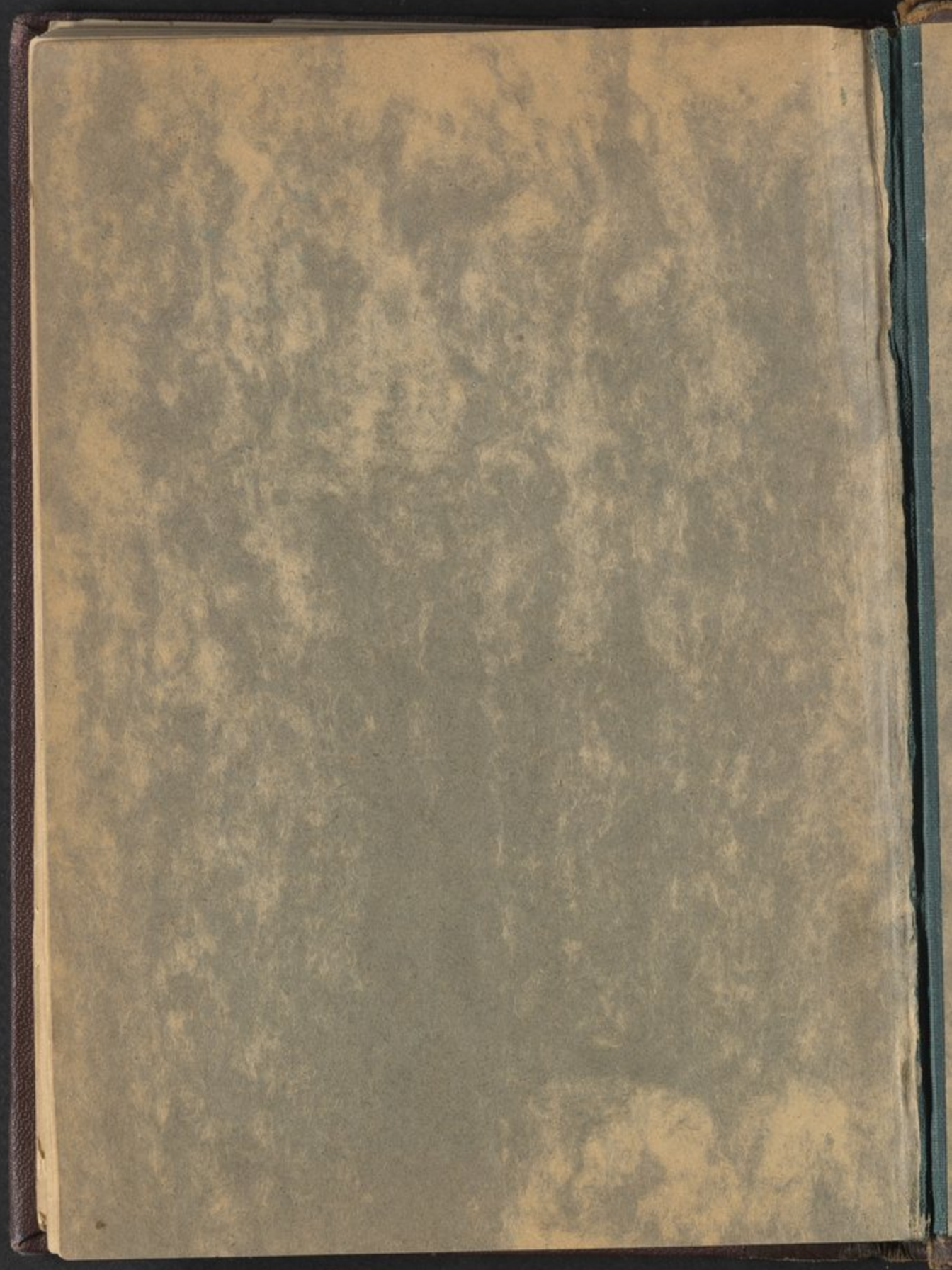
3 8534 00953 4474



FROM THE
LIBRARY OF
THE
AMERICAN UNIVERSITY
IN
CAIRO

من مكتبة
الجامعة الامريكية بالقاهرة





TY

II

HN
786
H5
1928

al-Helwānī, Muṣṭafī Abū
Fu al-Riḥ al-Miṣrī

في الرِّيفِ المِصْرِيّ

تأليف

مُصْطَفَى عَلِيّ الْهَلْوَانِيّ

مصدر بكامة للاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمي
استاذ الفلسفة بكلية الآداب
بالجامعة المصرية



حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

١٩٢٨

الطبعة الاولى

OCLC
63514568

06-350 Part

B13645195
15472401

٢٢٢/٢
م/ع

الى أنصار « حقوق الانسان » زقى مصر !

صرخة ألم ، وصيحة حق !

مصطفى علي الهلباوي

٢٠١٢
رقم - فني

51318

خطاب

الى المؤلف

بقلم

الاستاذ الكبير الدكتور منصور فهمى استاذ الفلاسفة
بكلية الآداب بالجامعة المصرية

عزيزي مصطفى

ربيع قرن مضى — وليس بقليل أن ينقضي من حياة المرء
ما ينوف عن خمس وعشرين سنة — إذ كنت تلميذاً في المدرسة
الفرنساوية ، حين كانت تلك المدرسة في شارع الدواوين ، وحين
نزلت من ربوع الريف الذي نشأت فيه ، لأصيب قسطاً أوفى في
الدراسة الثانوية ، وأذكر أن استاذ اللغة العربية — وكان المرحوم
محمد بك دياب — طلب الى تلاميذ الفرقة التي كنت بها أن يكتبوا
موضوعاً انشائياً عن سكنى الأرياف وسكنى المدن ، وعند هذا
السؤال فاضت نفسي بالحنين الى القرية التي نشأت فيها ، والمروج
التي درجت عليها ، والعشير الذي رعاني بعطفه ، وفاض على قلبي
النشأء أثر من فيض هذا الحنين ، فكتبت ماشاء الله أن أكتب ،
واصفاً الشمس المشرقة على الحقول ، وذاكراً قوماً تهز ضحكاتهم

العالية طلق الهواء ، ومتخيلا الأنعام الآمنة السارحة ، ومحدثا عن
 الفراش يتفقد الزهر البسام ، والنحل يرتشف من كؤوس النبت
 رحيقه المختوم ، وذكرت غير ذلك مما اتصل بنشأتي وكان له أثره
 في نفسي الفتية ، وكنت مخلصا حين كتبت ، وكنت شاعرا حين
 وصفت ، وكان أثرًا من ذلك الأخلص وشعاعا من تلك الشعاعية
 نفذ الى قلب استاذي الشيخ فحنّ هو الآخر الى عهوده بالصبا ،
 وبأيام الريف الذي شب فيه وترعرع ، فجاء مبكرا في ذات يوم
 الى المدرسة ودعاني اليه ، ولقيني بأطيب الكلمات هاشا مستبشرا ،
 وكان مامست به نفسه من عواطف عن الريف وأحاديث الريف ،
 بعث في شيخوخته الفانية حياة وأملا ونشطا !

وهكذا قد تشابه لا مور في مجاري الأقدار ، فلقد كان فيما
 كتبت عن شئون الريف مبعثا لذكريات حلوة تجرد من أثرها
 ارتياح لنفسى وسرور ما احوج النفس اليه

للأيام أحكامها ، وللظروف شأنها في أمر الانسان ، فتخلق
 فيه عادات غير التي نشأ عليها ، وتحجب اليه ما كان لا يحب ، وتبغض
 اليه ما كان لا يبغض ، واعلمها حكمة بالغة حين أوصانا السلف الصالح
 بأن نحب هونا ما ، ونبغض هونا ما

قضت الأيام أن تعيش في المدينة كما عاش غيرك من قبل ،
 وأن تهىء لك المدينة مقاصد أخرى ، وتكيف عصبك وذوقك

وعقلك بكثير من شئونها، وهكذا أصبحت ترى في الأرياف
رغم حبك لها عيوباً، وتلمس فيها عوجاً، وترى مواضع للشققة
لا يعزيك عنها إلا أن تصيح بأصلاح الناقص، وتقويم المعوج،
وتغيير المكروه، ومن الحق أن ترفع الصوت عالياً لتشد الخير
للريف وأهله، وذلك لأن المدينة علمتك أن في حياتها من الخير
ما يصح أن يتجمل به الريف، وأن الحضارة وسعت من الحسنات
ما إذا أضيف منها إلى حياة البداوة لكسب الإنسان اللذتين وباء
بالحسنيين، وكلنا أو أكثرنا مثلك، طابت له الأرياف في حياتها،
وأحس بخير المدينة، فأصبح يتمنى أن لو جادت الحضارة بشيء
من محاسنها على الريف، وجاد الريف بشيء من محاسنه وطيباته
على المدينة !

وما هو إلا أن نشعر جميعاً بما نشعر، ونشد ما تنشد، حتى
يتكون من مشاعرنا وأناشيدنا لحن اجتماعي وصوت قاهر يردد
الأصلاح للريف، ولا يلبث الزمن عند هذا الصوت القاهر إلا أن
يلبي الدعوة، ونرى من الريف المعيب جنات، ونرى في القرية
المهملة المنبوذة موطناً تتغذى منه الأنفس مبادئ الجمال !

إذا كان ما كتبت لا يؤثر فيمن كتبت لهم من قرائك
الذين تحسبهم مسئولين عن إصلاح الريف، وإذا كان قلمك فيما نتمنى
وأجاد فيه، لا يؤثر في القارئ، بحيث يشعر بشعورك في الأمر

ويفكر بفكره ، فإن فيما كتبت فضيلة كبرى من فضائل القروي المثقف ، اذ يتذكر بالخير مسقط رأسه ، ويهيج شوقه الى ميدان طفولته ونشأته فيقول : « ذهبت اقضى فروض الذكري والوفاء . لقريتي التي غدتني رضيعا ، وتعهدتني صبيا ، وشاهدتني أحبو على أرضها ، وأعبت بأمها ، وأجري في حقولها ، واتعلم مبادئ القراءة والكتابة فيها » ، ثم يردد : « الى الريف ! الى ذلك الحى الهادي » ، وهذا المعبد الساجي الخاشع ، الى مهبط النفوس الثائرة ، ومسكن القلوب المعناة ، وجمع الآمال الشاردة . . . » ، ويقول : « ما أجل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجلها حين تطلع من خدرها ، وتتلقت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها ، وبسلطان دولتها ، تصحو من نومها ، وتنهض من سريرها ، تنزِيل أعضائها من فتور النوم ، ويتراخي جسمها ويتهدل من كسل الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحية »

وجميل بالفتى المصري الناشئ أن يشعر بمصريته ، فيما لبلاده من خصائص . وليبثته من مميزات ، وفيما لعشراته من عادات ، ولأيامه من ذكريات ، فيذكر الكتاب كما ذكرت ، ويذكر الريفات كما ذكرت ، ويذكر الأغاني كما ذكرت ، وفي تلك

الذكريات المتصلة بمصر الصميمة ، وبسنى حياتك الماضية ، معني
دقيق للوطنية والقومية ، فاذا كنت أنا اليوم أغتبط كل الاغبط ،
اذ أرى أحد أبنائي النجباء في التلمذة . يعترف بالجميل للقرية : أمنا
المشتركة ويريد لها الاصلاح ، فأنى طالما تأملت حين رأيت فئة من
الشبان تناسوا نشأتهم ، وعاشوا لأنفسهم لاهين لا عيين ، ناعمين
بما تقدمه لهم الحضارة ، متناسين مصر ، وريف مصر ، وفلاح مصر ،
الذين نشأوا هم وانتظروا منهم لأنفسهم المعونة !

لست أدري أستظل محتفظا بكل ما جاء في كتابك من آراء ،
أو ستغير الأيام فيها ما من شأنه أن يتغير مع الأيام ؟ على أنه ليس
بهم في نشأة الفتى خطأ الرأي أو استقامته ، ولكن الهام رغبته
في الخير ، واشتعال وجدانه بالواجب ، وتفكيره فيما يدعو الى
التفكير ، وانك فيما كتبت تشعر وتفكر ، وما أسعدنا بشبابنا
حين يشعر ويفكر ، ولك إذن أخلص دعواتي واعجابي وحيي
الصادق

منصور فهمي

ديسمبر سنة ١٩٢٨



مقدمة

كتبت هذه « الرسالة » أو هذه « الأحاديث » متأثراً
بعاملين قويين ملكا عليّ مشاعري ، واستوليا على كل كياني : وهما
الرحمة والوفاء ، وما أحسب ان فكرة من الفكر استأثرت بنفسي
واستبدت بعقلي مثل هذه الفكرة أو هذه العقيدة التي أذيعها في
هذه السطور ممزوجة بلحمي ودمي ، مندمجة في كل سائري وعالمي .
أخذت نفسي بنشدان وجهه من وجوه الاصلاح في مصر
لأفتح به حياتي الجامعية ، فلم أر موضوعاً أجدر بالحديث وأولى
بالعناية وألصق بذاتي من موضوع « الريف المصري »

ولقد خامرتني هذه الفكرة منذ سنين ، وأخذت في عقلي وقلبي
أدوارها التي يأخذها كل الأحياء ، حتي اذا شعرت بضغطها ونمائها
ويفاعتها ، أخرجتها من عالم الباطن الى عالم الظاهر ، أو من عالم
النفس الى عالم الوجود !

فكرت في حال الفلاح المصري كثيراً وفي لون الحياة التي
يحياها في عصر النور والعرفان والحرية والحق والجمال ، في عصر

لا أظن أن الأدوار التي مرت بها الانسانية كلها بلغ فيها التنازع على البقاء في الحياة ، ما بلغه في هذا العصر المتوثب الطامح المساح بكل صنوف الآلات والقوى

وسط هذا العالم الصاخب المضطرب المتنازع على الحياة الموفورة السامية ، الطامح في نور جديد يرشده الى عالم أرقى والى حقيقة أسمى والى منزلة أقدس . .

في هذا العصر الطامح المجاهر ، والذي تفتحت فيه العيون التي أغمضها الجهل فرأت نور الوجود كما أراد الله ان يكون ، والذي تحررت فيه العقول — أو كادت تتحرر — من قيود التعصب وأسر العماية ومن سلطان البابوات والملوك وأعداء العقل ، فأمكنها أن أن تشع شعاعها على هذا العالم الذي أراد الله ان نعرفه ليمكننا أن نفهمه ونستمتع بما فيه من نور وحق وجمال ، ولكن أبت السياسة وأبى الدين — استغفر الله — ولكن أبى الساسة وبعض رجال الدين أن نعرف هذا العالم الذي نعيش فيه وان نرى هذا النور الذي خلق من أجلنا ، ،

في هذا العصر الذي كاد يقضى على كل صنوف الاستبداد وألوان الاعتساف وظلم الانسان لأخيه الانسان ، يعيش الفلاح المصري العيشة التي كان يعيشها زميله الفلاح في حكم الرومان والبطالسة والعرب والماليك ، كأنه لم يدر بعد ماذا حدث في العالم ، وماذا طرأ على « الانسان » !

شعرت بهذه الحال السيئة الالمية وبهذه الحياة التي يحياها فلاحنا في القرن العشرين ، فحركني باعث الرحمة والرثاء لحاله ، وأنا منه وهو مني ، وباعث الوفاء لهذا البلد الامين الذي شقى ببعض أبنائه ، والذي نكب بتلك الادوار والعصور السود التي مرت على حياته ، حتي غدا تاريخه سلسلة متصلة من الجور والبؤس وانظلام ، لا تكاد حلقة تنفصم عن حلقة ، وباعث الوفاء لهذا الريف الذي حبوت على أرضه وعشت تحت سمائه وترعرعت بين حقوله ، والذي يعاني من صنوف الاهمال والتغافل ما يعاني ، في الوقت الذي نأخذ منه كل شيء ولا نعطيه أي شيء ، بل نحرمه كل ما نستمتع به نحن من علم ومن حرية ومن رغبات النفس والشعور بالحياة !

يحيا فلاحنا حياة لا ترضاها نفس أبية كريمة تحركها أبسط صنوف الرحمة والوفاء لهذا الفلاح ولهذا البلد ، حياة لا يقبلها رجل يغار على بلده ويعرف معنى الوفاء له ، ويود له النهوض والمكانة التي تليق بسابق مجده وقديم حضارته الأولى ، حياة يتقزز منها كل فرد يقدر لفظة « انسان » وتدفعه الشفقة والرثاء لأخيه « الانسان » !

من الاحتقار « للانسان » أن يعيش الفلاح المصري هذه العيشة النكداء ، ومولاه الغني يلبس الحرير ويتوسد الدمقس بما يقطع من لحمه ويشرب من دمه ويعيش في ترفه وعزه على كده وبؤسه ، ومع ذلك لا يكامه الا بالنظرات الشهداء وبالحدود المنتفخة والوجه المتورم من الصلف والنيه والتعسف ، ولا يعامله الا بالاسباب

والتعذيب ولا يخاطبه إلا باللطم « و الركل » وحكوماته المتعاقبة المتغيرة عليه والتي تمتص مواردنا ومرتبات موظفيها من عرقه ومن دمه ، لا تكافئه الا بتجاهله واحتقاره ، وإن سخرت في الكرم وجادت بالعطاء تكافئه بمعسول الاماني ومكذوب الامل بما تلقى من وعود ، وبما تحبر من كلام ، وبما تزوق من خطاب !

من الاحتقار للوطنية المصرية وللنهضة القومية الكبرى ، وللبعث العالمي ، و « للروح الانسانية العامة » ، وللدماء التي أريقت ، والارواح التي زهقت ، والضحايا التي تكدست في ظلمات القبور ، والاشلاء التي تبعثرت في الاجواء تحت أزيز الرصاص وقذف المدافع ، وللنساء التي أيمت والاطفال الذين يتموا ، والبيوت التي خربت وللعائلات التي نكبت في ابنائها وفلذات أكبادها ، من الاحتقار لصيحة الحق وقومة العدالة وهبة الحرية ، أن نستمتع ببعض ما بذلنا في سبيله من مهج وأرواح ، ثم يبقى الفلاح المصري في حقله وفي أركان داره المتهدمة المظلمة القذرة بين مواشيه وحميره لا يفرق كثيراً بين الجور والعدل ، ولا بين الحق والباطل ، بل ولا بين الحرية والعبودية !

مضى الزمن الذي كان فيه الانسان يصبر على الضيم ويخضع للذل ويقبل مكرها يد جزاره وذابحه ، وبادت تلك الاعصر التي كانت فيها الانسانية مقسمة الى قسمين أو صنفين من الخلق :

انسان وشبه انسان ، للاول الغنى والترف والعز والسلطان ، وعلى
الثانى الغرم والذل والشقاء والهوان !

لم يرد خالق الانسان حين خلقه وسواه الا أن يكون هذا
« الانسان » مالك نفسه وسيد أمره ، له مم في هذا العالم من نور
ومن حرية ومن علم ومن جمال نصيب موفور يليق بوجوده السامي
وخلقه العالي ، فما بال الانسان نفسه يجعل من نفسه آلهة أو شيطانا
يعبت بالخلق ويقسم الناس الى رؤوس وأذناب والى أسياد وعبيد ،
فى عصر امتحت فيه كلمة « العبد » وعلت كلمة « الانسان » ؟؟

ولهذا فليست هذه الرسالة الا صيحة الحق وصرخة العدالة
اضمنها هذه السطور التي تكاد تحترق من لهيب الاسبى ، واتي
لو بدلت عيوننا لشففت وترجمت عن حرقة الشقاوة وذلة الدموع
وجراحات الالم ، صيحة من صميم القلب وصرخة من اللحم والدم ،
يبعثها شاب أمضه الالم ولاعه الاسبى اشفاقا على هذا الصنف من
من الانسان الذي له اسمه وليس له مسماه ، وله لفظه وليس له معناه !
وانى لم أحرص على نشر هذه الرسالة أو هذه الاحاديث
الا لآنى أحب أن أورش بها حياتى الجامعية وان افتح هذه الحياة
التي أرجو أن تكون مباركة خصبة بنشيدان وجه من وجوه الاصلاح
والاحياء المصري والبعث القومي ، وأن يتوج هذا الافتتاح بأشرف
وأنبىل ما فى الانسان : الرحمة والعدالة !

وأحب أن يلاحظ حضرات القراء الكرام انى حين فكر

في كتابة ثم نشر هذه الرسالة الصغيرة لم أبغ بها إلا أن أصل
 الفلاح المصري بالبيئة المدنية المصرية لاها تجهله كل الجهل ، ولذلك
 لا تقدر بؤسه ولا تفهم لغة آلامه ، وملاحظة ثانية أيضاً هي
 الا يعطوا هذه السطور صبغة أكثر من انها «أحاديث» ، إذ لست
 أنحل لها صفة «كتاب» ولست أدعي لها صفة «التحقيق العلمي» ،
 وإنما ملاحظات رأيها وخواطر لعبت برأسي وآلام شعرت بها
 ونداء باطني هتف بي ، فسطرتها على الورق كما هي لتكون صورة
 من شعوري الأول وصدي لنفسي المضطربة الجياشة بكل ألوان
 الشعور وصنوف الاحساس !

وملاحظة ثالثة : هي اني حين أردت أن أكتب عن الفلاح
 المصري وعن ريفنا لم أختار إلا صنفاً واحداً من الفلاح هو الغالبية
 العظمى في كائنا القومي ، وهو الفلاح الذي لا يملك شيئاً بل يعيش
 اما مأجوراً أو مستأجراً ، فان خلت هذه السطور من التعرض
 لصنوف الفلاح الاخرى فذلك لاني لم أشأ أن أمسها بالتصوير أو
 أتعرض لها بمحدث

واني لسعيد جد سعيد بين اطواء نفسي وأمام محكمة ضميري
 كلما فكرت اني بذلت كل جهدي لا تكون أميناً في تصوير
 ريفنا المصري وحياة فلاحنا ، صادقاً في التعبير عن شكواه وآلامه
 ولست أنكر ان هذه الاحاديث قد ينقصها «وحدة الفكرة»
 أو تزواج المعاني واتساقها اتساقاً منطقياً منظماً ، وتعليل هذا اني

أحببت أن أصور مختلف مشاعري وما يقع عليه بصري وما تجيش به نفسي وما يستغرق فيه عقلي وتأملاتي حين شعوري واحساسي وأنا في ريفنا وبدائوته وبين فلاحنا وسداجته دون أن أراعي في ذلك « الوحدة الفكرية » أو « الصبغة الفنية » ، ولذلك نخلت لهذه السطور المبثوثة في هذه الأوراق صفة « أحاديث » لتدل على نفسي وعلى شعوري وعلى قصدي حين كنت أكتب ، وحين كنت أشعر ، وحين كنت أفكر

هذا نصيبي الآن من الإصلاح المصري وواجبي من الأحياء القومي أقدمه خير ما أكون مغتبطاً وراضياً ، لأنه مظهر للفكرة « الإنسانية » التي أحبها واحترمها ، وأعمل على هداها ونهجها ، وأعيش في سبيل تحقيقها ونجحها ، ولأنه جانب من « نفسي » وعصارة من دمي ، وشطر من وجودي ، ولأنني أشعر بأنني أرضيت به ضميري ، ووثقت فيه بنفسي ، حين قمت ببعض وواجبي ، واضطلعت بجزء من مسئوليتي ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها !

مصطفى الهلباوي

سبتمبر سنة ١٩٢٧

الفصل الاول

(من ذكريات الصبا)

غادرت المدينة — أستغفر الله — بل هي التي أقصتني عنها ،
وأبعدتني عن ملاهيها ونواديها ، عن حدائقها ورياضها ، عن فائزاتها
وساحراتها ، عن مشاهد حسننها ومعابد جمالها ، عن الصراع فيها
بين الحياة وأبنائها ، عن الشعور فيها بمعنى « الحياة » شعوراً يتغلغل
في أجزائها وأرباضها ، عن مدارسها ومعاهد العلم وكعبة الثقافة فيها ،
ومناط آمال الشباب المصري الطامح في عهد جديد ، ونور جديد ،
يقوده الى « العالم الجديد » ، وينزله منزلة « الانسان الجديد » !
نعم ! فارقت القاهرة ، وحيل بيني وبين الجامعة ، مهبط آمالي
ومعقد رجائي وحقل جهودي ووادي أحلامي ، وقالوا : عطلة ! !
أتى أذهب إذن لأقضي شهور تلك العطلة الطويلة المحلة ،
لأعطي بدني حقه من الراحة وعقلي حقه من الرياضة ؟ ؟ . . . الى
الريف ! ! الى ذلك الحى الهادئ ، وهذا المعبد الساجي الخاشع !
الى مهبط النفوس اثائرة ، ومسكن القلوب المعناة ومجمع الامال
الشاردة ، ومسرح الاحلام الهائلة ! ! !
أقصيت إذن عن المدن لأستعيض عن صخبها وحضارتها ،

بهدهء القرية وبدأوتها ، ولأستبدل بأبن القاهرة المتحضر المتعلم ،
ابن القرية الساذج الجاهل ، فكثيراً ما ننجح الى البساطة والبداوة
والجهل ، نطلب فيها قناعة الرضا وهدهء الاطمئنان ، وجلال
البداوة ، ونستجم فيها من جهاد العلم ومن اضطرابه وتذبذبه ،
وشكوكه وحيرته ، ومن صلف الحضارة وتكالييفها ، وهل حياتنا
ياصاح الا مزيج مضطرب من الحضارة والبداوة ، والعلم والجهل ،
والنور والظلام ، والحق والباطل ، وما شئت من هذه الظاهرات
المتناقضة المتعاكسة التي هى سر نظام الوجود ، والنغم أو الاتساق
الذي ينظم اضطراب موسيقى الحياة ؟ هل حياتنا الا تفاعل الخير
والشر ، والفضيلة والرذيلة ، والقوة والضعف ، والايمان والشك ،
وفى هذا التفاعل وهذا الازدواج قوة الحياة ، وجمال الوجود ،
ووحدة العالم ، وكمال الانسانية جميعاً ؟

ذهبت إذن أقضي فروض الذكرى والوفاء . لقريتى التي
غذتني رضيعاً ، وتعهدتني صبياً ، وشاهدتني أحبو على أرضها ،
وأعبت بمائها ، وأجرى في حقولها ، وأتلم مبادئ القراءة والكتابة
فيها ، وأحفظ القرآن الكريم في كتابها أمام كثير من فقهاءها ،
ذهبت أستعيدها ذكريات الصبا ، وأقسم لديها يمين البر والحب
والولا ، وأتخذ من دورها وقنواتها وحقولها « وكتابها » وحرارتها
وأجرائها وأشجارها وربواتها وحدائقها ومقابرها ، عونى على
الذكرى ، ووحى عند التفكير ، والهامي حين الكتابة ، وأصل

حلقة من حلقات حياتي بالفلاح الساذج الجاهل الطيب المسكين
البريء الذي أحبه وأجله وأشفق عليه !

وإذا ما ذكرت « الكتاب » عادت بي ذاكرتي الى عهود
الطفولة والصبا ، الى تلك العهود الخالدة من العمر ، بما فيها من
حرية تكاد تكون مطلقة ، الى عبث بالغ أقصاه ، الى خوف ورهبة
من الفقيه الاعمى ، يطفه الحنين والشوق الى اللهو مع أطفال الكتاب
تارة بفقيرنا ، وتارة أخرى بعريقنا !

لا زلت أذكر « الكتاب » ويوم كنت أساق اليه سوقا
بالعصا ، وعيني تذرف بالدموع ، ولا أسكت عن بكائي ولا أجف
دمعي ، حتى يرضيني أبي بقطعة الحلوى أو بالقرش ، تشفعه قبلة
أبوية طاهرة ، وكلمة رضية كريمة ، ولا زلت أذكر « سيدنا »
الضرير وهو « استاذي » الاول — ان صح هذا اللقب — وكيف
كان يرهبنى بأسه ويخيفنى شكاه ويزعجنى صوته ، ولا زلت
أذكر « لوح القرآن » الخشبي تارة والصفحي تارة أخرى ، وكيف
كنت أنا السابق الفائز فى حفظه واستظهاره بين أولاد الكتاب
وحضرات الزملاء !

ولا زلت أذكر أيام المواسم والاعياد ، لا يصرفنا « سيدنا »
حتى اسلمه فى يده (البريزة) وحتى يسلمه الآخرون الفطيرة أو
قطعة السكر

ولا زلت أذكر ذلك العريف الضرير أيضا وصوته الأجلش

الحسن ، ونبراته الجافة الغليظة المنكرة ، حتي كاد ان يكره لدي
وأنا في طفولتي استماع القرآن !

ثم لا زلت أذكر ولا يمكنني أن أنسى يوم كان هذا « السيدنا »
ينيب كل واحد منا في أن يقرأ في البيوت (ربعا) حتي يستريح
هو من عناء القراءة ويأخذ مرتبه من الفلاحين المساكين زوراً
وبهتاناً وغشاً ، ولا زلت أذكر ذلك اليوم العصيب ، يوم أعد
« سيدنا » آخر (الفلكة) الخفيفة ، ويوم أعد معها (الكرباج)
لا العصا وغسله بالماء والملح ليتفنن في الايذاء والايلام ، وجادت
رحمته وتدينه الصادق بأن أمر أمره بالقاء ثلاثاً من رفاقي أمامه في
الفلكة ، أنهموا بأنهم سرقوا تقوداً من آبائهم وشروا بها سكرًا
وشاي من الدكان ، أذكر ذلك اليوم كأنه الآن وأذكر يوم
وقف هذا « السيدنا » الثاني (على حيله) وربط كل واحد بدوره
في الفلكة وأعطاه نصيبه من الضرب والعذاب الى أن أدمت
أقدامهم ، والعريف الجبار الضريع هو الممسك بالفلكة آلة
التعذيب ، امسكة لا تخلو من تفنن وأبداع ، وهو بذلك فرح
مغتبط ، ونحن جميعاً جاسون على (الحصيرة) حول هؤلاء الفرسان
الثلاثة ، نشهد هذا المنظر المؤثر الجميل ، منا من يضحك شامتافرحاً ،
ومنا من يبكي شفقة وتألماً ، ومنا من اصفر وجهه ومن ذهب رشده
من الوجع والخوف خشاة أن تدور عليه الدائرة يوماً فيمثل به هذا
التمثيل المفجع

ولا زلت أذكر تلك الغرفة الضيقة المظلمة من الطوب النبيء
 (الاخضر) ، والقناة التي كانت أمامها حيث يلعب فيها الاوزوالبط
 الصغير الجميل ، وحيث نعبث فيها بأقدامنا وبما تقذفه فيها من
 أحجار ، ثم قطع الحصير الاخضر من أوراق البردى وأعواد البوص ،
 وتلك « الألواح » اللامعة الزاهية من الصفيح موضوعة على الرفوف
 المتربة المغطاة بنسيج العنكبوت ، وتلك الدوي المصنوعة من الطين
 المحروق ، وحبرها المتخذ من هباب المصاييح والمسارج ، والمختلط بقطع
 من الخرق البالية القذرة « وسيدنا » الضرير المعمم ، ومركوبه المرقع
 وبجانبه عصاته الجبارة « ومقرعته » ، المستبدة الحاكمة بأمرها ،
 وفلكته المصنوعة من جبال الليف تكاد تبسم تيمها وزهوا بضحاياها
 وبجبروتها وبما يعلق فيها من أرجل وأقدام لا تزال طرية غضة في
 غضارة العمر ونضارة الصبا ، وهؤلاء الاخوان الزملاء خارجين من
 « الكتاب » دار سجنهم ومنزل تعذيبهم ، بجلايينهم المتربة القذرة ،
 وبوجوههم المعفرة وأيديهم المزينة بالخبر ، وان يخرجوا أو يغادروا
 عتبة « الكتاب » حتي يهرول كل الى داره يعلن الى أمه خروجه
 من « الكتاب » ثم الى الحارة ، والى الكرة ، والى الاجران !
 ولا زلت أذكر هذه اللذة الكبرى التي كنا نشعر بها
 أطفالا ، حين نبتاع لوحا أو دواة أو مصحفا من « السوق » ،
 وتدفعنا هذه اللذة الكبرى وهذا الفرح الشديد الى وضعها بين

أحضاننا حين ننام ، حتي لا يسرقها منا سارق أو يعيث بها عابث
ولا زلت أذكر أيضا تلك الساعة العصبية حين كان يتربيع
« سيدنا » ويخلع « مركوبه » أو « بلغته » ، ويضع بجانبه مقرعته
وفلكته وينادي كل واحد منا بدوره في استظهار ما حفظ من
المصحف ، فان أخطأ الشكل أو مخرج الالفاظ أو تلثم في كلمة
أو آية أو قدم أو آخر ، أسعفه بالقرعة على ظهره أو على وجهه أو
على عينه بحسبها يده أو ذراعه !

نعم ! لا زلت أذكر كل هذا ، تلك الايام والعهود الجميلة
الخالدة بمحادثتها وطفولتها ، وتقائها ومرحها وفوضاها ولهوها ، ورهبتها
وفزعها ، وهل تنسى ذكريات الطفولة وعهود الصبا وأزمة العبت ؟؟
وسيدتي كل هذا في ذاكرتي مرتسما في خيالي ممزوجا بلحمي
ودمي مندجبا في كل اجزاء نفسي ، لانه الصفحة الاولى من تاريخ
« نفسي » واللينة الاولى في بناء « ذاتيتي » ولهذه الصفحة عندي
أجلال التقدم وجمال العبت ودالة الصبا

كنا في تلك العهود المرحية التي لا « مسئولية » فيها ، ولا
شعوراً بواجب ، ولا تفكيراً في الغد المجهول ، ولا بحثاً عن حقيقة
مخبوءة في ظلمات الوجود ، تأتية في « اللانهاية » الواسعة الطويلة
العميقة ، كنا في تلك العهود من العمر ، عهود الطفولة والصبا
والعبت والفوضى والفساد ، نعبت بالتراب والرمل ونلهو بكل

ما يقع تحت أيدينا المخربة المهدمة ، حتي الزمن الجبار المستبد كنا
نلهو به في صبابنا ونسخر منه ، وها هو ذا الآن يياد لنا اللهو والسخرية
وكأنه يقول لنا السن بالسن والعين بالعين !! كنا بنني بيوتا من
الرمال بين مقترق الطرق وعلى شواطئ الترع ، كأنها بيوت آمالنا
ورجائنا ، ثم نجري حولها الماء في الأرض التي خططناها للحدائق
والرياض والأشجار ، فإذا هدمت هذه « المنشآت » وهذه
الحدائق شاة أو بقرة أو جاموسة أو انسان ، صخبنا وصحنا
وغضبنا وبكينا ، لأنها هدمت ما بنينا ، وقوضت ما أنشأنا وسخرت
مما فعلنا

ولكن لا يلبث الرمل أن يذوب ، ولا يلبث البيت وحدائقه
ورياضه وأشجاره أن ينهار ، وهكذا حالنا في هذا الوجود ! بنينا آمالا
وأحلاما .. كذابا من الرمال ومن السراب ، ونشيد قصورا وحصونا
من الباطل ومن الوهم ومن الخيال ، وننفق كل أعمارنا في طلائها وزينتها
وزخرفها والتيه في صحراواتها وفلواتها ، حتى تخيب الحياة آمالنا
وتهدم بيوتنا التي أودعنا فيها صبابنا ورغباتنا وهوانا وأحلامنا
وتفكيرنا وكدنا وجهودنا وبحوثنا ، وحتى يجيء ذلك « الطوفان »
الطامي القاسي وتلك « الموجة » الكبرى فتأخذ معها كل شيء
وتبتلع كل ما في الوجود ، فإذا الآمال رمال ، وإذا الأحلام سراب
وإذا البحث والتفكير هواء !!! حقيقة كخيال ، وحق كباطل ،

وصدق ككذب ، وعلم كجهل ، وغناء بكباء ، ووجود كعدم ،
وشئ كلاشئ ! الا ما أ كذب الحياة !!!
يا ليت الحياة كلها عهود الصبا ودولة الشباب !
فيا ليتنا عشنا حياة بلا ردى
مدى الدهر أو متنا مائة بلا نشر
ولكن هل تجدي « ليت » ؟ !!!



الفصل الثاني

ريفنا المصري

نلجأ جميعاً الى الهدوء والسكينة ، نحتفى بهما من الصخب
واللحج .

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى

وصوت انسان فكدت أظير

وأين نحتفى من صخب المدن وتكاليها وضوضائها ؟ وأين
نروح عن النفس عناءها وعن الجسم متاعه ؟ فى الريف كل ما نطلب
من هدوء بعد صخب ، وسكون بعد حركة ، وبدواة ساذجة بعد
حضارة متكلفة ، فى الريف مستراح للمعني ، وملاذ للمتعب ،
ومتنفس للمكروب ، نعم ! فى الريف نشد راحتنا وطمانيتنا ،
ونجد عزاءنا وسلوانا ، ونرى أنفسنا رؤية الحقيقة فلقد قال
« أمرسون » : « ليس الإنسان سوى نجاح الطبيعة فى تصوير
نفسها » وفى أي مكان نشهد جمال الطبيعة وجلالها ، ونجاح تصويرها
وكمال فنها ودقة صنعها . خيراً من الريف ؟ فى الريف معابد الجمال

حقاً لمن أراد أن يعبد الجمال ، فى الريف « ألوهية الفن » لمن شاء
أن يستلهم ملائكة الفن ، هنا « قدسية الدين » وخشوع الإيمان
ونور اليقين ، لمن غشت عيونهم ظلمات الشك ، وختم الله على
قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، هنا يعبد الله فى كل
مكان ! فى الأرض منبت الخير والبركة ، وفى الشمس باعثة
الدفء والحرارة والحياة ، وفى السماء الزرقاء ، وفى النجوم المتألقة ،
وفى القمر المنير ، وفى الختول الخضراء ، وتحت ظلال الكافور
والنخيل والتوت والصفصاف ، وعلى حافات الترع والقنوات الجارية
الوديعه المرحه ، وفى وجوه الريفات الجميلات جمال الله لا جمال
« الإنسان » !

ما أجمل الطبيعة فى الريف ، وما أوسع « الكون » هنا ،
وما أروع « اللانهاية » ! وما أسهل طرق « المعرفة » لمن يريد أن
يبحث عن « المعرفة » ، هنا فى جمال الريف وهدوئه ، وتحت
ظلال أشجاره الظليلة الدافئة المتراوحة ، يجلس الباحث عن
« المعرفة » يستجلى الكون الواسع وأسراره الدفينة ، ويجول فى
تلك « اللانهاية » الواسعة التى لا ساحل لها ولا حد تنتهى عنده ،
ليصل الى الله ، الى العلة الاولى أو علة العلل أو « الحقيقة المطلقة » ،
من طريق الأرض والسماء ، والنجوم والأفلاك والأجرام والنبت
والشجر والماء والشمس والزهر والحيوان ، من طريق « الإنسان »
ومن سبيل « الجمال » ، فمن « الجمال » وحده نتصل بالله ونعرفه

ونعبده ونفهمه ونحبه ، والحب كما يتول « تاجور » هو كمال « الشعور
بالنفس » ، ونحن لا نحب لأننا لا نفهم ، أو بعبارة أخرى نحن
لا نفهم لأننا لا نحب ، لأن الحب هو المعنى الأسمى الأكمل
لكل ما حوينا ، فليس هو عاطفة فحسب ولكنه « الحق » ،
والكنه الفرع الذي في صميم كل الخليقة »

الجمال والحب إذن هما سبيلنا إلى الله وطريقنا إلى عبادته
ومعرفته ، ففي « الجليل » نرى الله وندرك سره في خلقه ، ونعبده
في قدرته وفي إبداعه وفي كماله ، ونتحد فيه اتحاد العلة بمعلولها ،
ونفني فيه فناء الضعف في القوة ، والنقص في الكمال ، والتشويه في
الأبداع والنهاية في « اللانهاية »

وإذا كان الجمال أساس الحب ، وكان الحب أساس الدين ،
فأقوانا شعوراً بالجمال وأدقنا حساسية للحسن ، هو أشدنا خضوعاً
لسلطان الدين ولقداسته ، وأصبحنا فيهما ومعرفة للملكوت الله
وعظمته وكماله

وإذا كان الريف في الغرب معبد الجمال ، ومهبط السحر ،
ومستلهم الفن ، ومبتدع « الخلق » والتكوين ، ومستراح النفوس
المعناة ، ودواء القلوب الكسيرة من ضنك الحياة ومن آلامها ،
والصدور المكومة من غدر الزمن وتنكره ، ومسرح الأرواح
الهائمة الحائرة تبحث في « اللانهاية » الأزلية عن نور اليقين وعن
سر الوجود ، فيتبدد شكها في أضواء الإيمان وفي نور « الحب والجمال » !

أقول اذا كان الريف فى الغرب عزاء المصايين وسلوى البائسين
وراحة المكرويين ومحج العاشقين ومعبد المؤمنين وملكوت
« الفنانين الخالقين » ، فهل لنا ريف نحج اليه ونحتمى به ونعبد فيه
الحب والجمال والقوة مثل ما للغريبين من ريف ؟ وهل لنا ريف
يخلق من العظماء ومن النابغين ومن الفنانين ومن « الخالدين »
ما يخلق ريف الغرب من رجال العقل والقلب ، من أساطين الحكمة
وأنبياء الحب والجمال ؟ ؟ ؟ وهل لنا ريف يتجلى فيه « وحدة
الوجود » وتمثل فيه قرابة « الجزء والكل » تمثيلها فى ريف
الغرب ؟ ؟

يؤلمنا أن يكون الجواب : لا ! ، يؤلمنا أن نصرح بأن ريفنا
المصري كما هو الآن غير مستعد لأن يخلق لنا من الفنانين ومن
« الخالدين » ومن « الرسل » ما ينتظر منه فى عصر الأحياء
والبعث والخلق !

يؤلمنا ويندي جبيننا من الخجل والأسى ، ونحني الرأس ذلة
وضعفا ، كما وفد علينا من جماعات الغريبين والنازليين ، وكما ضربوا
فى ريفنا المصري الساذج النائم السادر ، فلا تقع أبصارهم إلا على
كل ما تتقزز منه النفس وإلا على ما يحقر من مهضتنا الكبرى
ويخفض من كائننا القومي ومن تاريخنا الخالد ، « فأوساط الجمال
الحى » فى ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافى لما يفجر
القلوب بالشعر الوجدانى الحى وبالعواطف النبيلة السامية فى يقظتها

وفي تجدها وفي حيوتها ، ولا لما يصعد بالأرواح العالية في
« الكون العظيم » وفي « الملكوت الأعلى » وفي « سموات الفن »
نعم ليس في ريفنا المصري مهبطاً لرسالة الحب ولا لوحى الجمال ،
ولا ربوعاً لفيض الألهام وفلسفة الأبداع وسر « الخلق » ،
ولا مبعثاً لوفرة « الحياة » وزيادة « الإنتاج » وبهر السحر وسحر
الفتنة ، بل دور متهدمة متناثرة ، وحقول نائمة ساكنة كسلة ، وترع
راكدة كدرة فاترة ، وأشجار متجردة عارية صامتة ، وناس
فقدوا أو أماتوا « حيوياتهم » ما بين ضنك الفاقة والاسى ، أو بين
الافلاس في سوق « الجمال والحب » !

نعم ! يكاد يكون من أشد العوامل في هبوط « حيويتنا » وفي الافلاس
في خلق رجال ونوابغ وفنانين وشعراء ينهضون بنا وبالعالم جميعاً
من هذا الركود الروحي وهذه الرخاوة الشعورية الفاترة المتبلدة ،
هو اننا لا نعني قليلاً ولا كثيراً بتوسيع دائرتنا الثقافية من ناحية
« الجمال » ، فليس للحياة لدينا قيمة أكثر من أنها وسيلة الى ارضاء
شهواتنا المادية المنفعيه ، والى استدرار الأموال واكتنازها ، والى
حشو البطون وامتلائها ، أما قلوبنا ، أما شهواتنا الروحية ، أما ثقافتنا
« الشعورية » ، أما ناحيتنا « العليا » وكائننا « الأسمى » ، فتكاد
تكون لدينا جميعاً نافلة من النوافل ، و « لا شيء » بين الأشياء ،
وهذا ما يجعل حياتنا موحشة قفرة فقيرة مظلمة مبعوضة ضيقة ،
وهذا ما يدعونا الى أن نطأطئ الرأس ذلة وخجلاً وعاراً ، اذا

ما سمعت آذاننا أسماء نابليون وروسو وشكسبير وجوت ودانت
وبيتهوفن وفولتير وماركوف وأديسون وتاجور وغيرهم ، هنا أمام
هذه الأسماء الخالدة نشعر بذلة في (فخارنا القومي) ، لاننا لا نعطي
حياتنا قيمة إلا من الوجهة المنفعية ، ولا نفهم الحب إلا انه وسيلة ،
ولا الجمال إلا انه فريسة شهوة وضعيفة ، وملهاة فارغة لنفوس خاملة
وقلوب ضعيفة

واذا كان هذا حالنا من الفقر في الشعور والجنود في (الحيوية)
والركود في (الإنتاج) وإذا كنا لا نعني كثيراً ولا قليلاً (بثقافة
الجمال) ولا نخاق لأنفسنا بأنفسنا معابد الجمال ومهابط السحر ،
ومباعت الفن والخلق والفتنة ، من هذه الأرض المدحوة الخيرة
المحسنة الغنية ، ومن هذه الحقول الخضراء الوديعية الساكنة ، ومن
هذه الأشجار العالية الصامتة المترابحة ، ومن هذه (الكائنات
العليا) كما يسميها (لامارتين) التي ينقصها يد الأثري ليخرجها
وينفض عنها غبارها ، ويبرزها للعالم وللوجود فيضاً للالهام ورسولاً
بالنور وبالخلق وبالحب وبالجمال وبالحياة جميعاً

أقول اذا كنا نحن بأنفسنا دعاء الخطاطنا ومعاول هدمنا ،
فنحن أيضاً بأنفسنا يمكننا — لو شئنا — أن نرفع (حيويتنا) وأن
نخلق من أرضنا جنات نحج إليها ونحتمي بها ، ونجد فيها أنفسنا ،
ونعزي فيها عقولنا وقلوبنا وأرواحنا ، فتعترف عيوننا النور وتستمتع
قلوبنا وأرواحنا بما في الوجود من حب وجمال ومن سحر وفتنة

وابداع واعجاز ، وتفيض عن عقول خالقة محقة ، وعن رجال
ونساء يشعون الحكمة والقوة والجمال في الارض جميعا !

ونعود الآن الى ريفنا الساجي السادر الفقير ، والى حقوله
الصامنة الساكنة الخيرة ، والى شمسهِ الوفية الدافئة ، والى بداوته
القناعة الراضية في ظلال الدعة والسكون ، وفي آثار ومخلفات
الأجيال الغابرة والعصور الدائرة

ما أجل تحية الشمس لأبناء الريف ! وما أجملها حين تطلع من
خدرها وتتلفت من حولها ، كالحسناء المفتونة بسحر جمالها وبسلطان
دولتها على القلوب ، تصحو من نومها وتنهض من سريرها ، تنزل
أعضائها من فتور النوم ، ويتراخي جسمها ويتهدل من كسل
الراحة وسكرة اللين ونعومة الرخاوة ، تظهر على عيونها الدعج
الناعسة الفاترة ، والنائمة اليقظة ، والمتبلدة النشطة ، وعلى جفونها
الخامدة الساكرة ، وفي نظراتها المتكسرة الحائرة الحمية !

ما أجملها حين تنسلل من مطلعها على أبناء الريف من وراء
الأبنية الواطئة البادية البسيطة الفقيرة ، ومن خلال أوراق الشجر
وسعف النخيل وأغصان الصفصاف المتهدلة في الترع الساجية ،
ومن وراء الحقول المحسنة الخضراء ، والقباب البارزة بين الدور في
القرية ، وابراج الحمام العالية فتنعكس على الماء الجاري في القنوات
وفي الترع ، وعلى سنابل الزرع الأخضر وأعواد الأذرة الجميلة
الجليلة في خضرها وفي خيرها وفي زهوها ، وعلى وجوه الريفيات

الجماليات حاملات جراتهن المتأيلة المستهترة المتكبرة بمرح ونشاط ،
في تيهه وعجب وتدل ، نعم ! ما أبهى طلوع الشمس على وجوه
الجماليات في الريف مبكرات في أعمالهن خفيفات الى تحية الشمس
الخيرة مصدر الدفء ومبعث الحياة .

جميل جداً ذلك السرب من النساء الريفيات ماشيات على
شواطئ الترع يخطرن في زهو وفي نشاط ، مبتسمات في غير كلفة
ولا صنعة ، مطمئنات الى حياتهن البسيطة الحشنة ، غارقات في نعيم
الجهالة المظلمة ، خارجات مع الشمس الساطعة يحمين معها الآله
العظيم في ملكوته وفي صنعه وفي ابداعه ، وكمن في الريف الساجي
الهادي من حسان ذهب جماهن بين ضحك الفقر وأوجاع الأسمى ،
وبين أغوار الاهمال وظلام الجهالة ، واختبأ بين القرى والكفور
بعيدات عن عوالم النور وعن معارض الجمال وملاعب السحر !!

وياما أجل منظر الفلاح المصري النشط خارجا مع الشمس
الى حقله وعمله يقود أمامه ماشيته واغنامه آلة خير وبركة ، ويجر
محراثه الخشبي البسيط الذي تغير وجه الارض وتطور كل من
عليها ، ولا يزال هو هو في بداوته وفي بساطته كأنه يهزأ من تلك
المدنية ومخترعاتها وخيراتها !

يخرج ذلك الفلاح النشط مبكرا من داره حاملا على كتفه
قأسه وغلقه وأمامه ماشيته ، غير مدخر لنفسه راحة ولو قليلة من
عناء العمل ، ممتاثا بوفرة النشاط وبحب العمل وبالشعور بالواجب

الذي هو أساس كل الأخلاق جميعاً كما يقول (كانت) ، واشهد الله أنه قلما يوجد من كل صنوف الفلاح في العالم مثل الفلاح المصري نشاطاً وجلداً وصبراً على السكدح والعمل ، وتحملاً للبؤس والسكد وللألم ، فهو في الحق (فخر مصر وسيدها)

أول ما تشهد في الريف إذا ما تسلمات أشعة الشمس من بين أوراق الشجر ووراء القباب والدور المتواضعة جماعات الفلاحين : هذا يحمل محراثه ، وذلك فأسه ، وآخر يسحب ماشيته ، وآخر اغنامه أو جملة ، وجمعاً عديداً من الاطفال الصغار الذين خلقوا من الارض ليعيشوا على الارض ويموتوا في الارض دون أن يعرفوا غيرها عالماً أو وجوداً ، يخرجون الى الحقول والغيطان ، ويعلمون الفلاحة والزراعة ولما يشبو عن الطوق ، ولما تحتمل أبدانهم آلام السكد وارهاق العمل ، حاملين معهم غذاءهم هم وآبائهم في مناديل أو في أسبات من الخوص ، وسرباً منتظماً من النساء تارة ومنتثراً أخرى ، ما بين حاملات جراتهن من الترع ، أو خارجات مع أزواجهن الى الحقول يشاركنهم في تلقيط أذرة أو جنى قطن أو حصاد قمح أو نقل سباخ أو حمل ردم أو ري زرع

هذا المشهد الجميل من النشاط المفرح الفاخر المتسرب في الرجال والنساء معاً والأطفال أيضاً ، هو أول ما تشهد في الريف وتحدث نفسك عنه حديث الأعجاب بل الافراط في الأعجاب ، لأنك تشهد فيه روح الشعور بالواجب والأيمان بالعمل وبالحياة ،

في تلك الطبقة الجاهلة البسيطة النشطة العاملة التي تدر الخير على
البلاد لبناً وعسلاً ، ولكننا نجعلها ونزديها صلفاً وعتواً ، قتل
الإنسان ما أجحده وأكفره !!

هذا الشعور بالواجب الذي تشهده في الفلاح هو خير ما في
الريف ، ويا ليتنا جميعاً نشعر بهذا الشعور ! إذن لتغير وجه تاريخنا ،
وإذن لأصبحت الأمة كلها فرداً واحداً يشعر بشعور واحد
ويخضع لقانون واحد : هو قانون الواجب لأنه واجب ، ياليتنا نعمل
كأن كل عمل من أعمالنا — كما يقول « كانت » — سيصير قانوناً
عاماً ، ياليت كل فرد منا يقوم بواجبه في حدود وظيفته ومواهبه
واستعداده ، إذن لانتجت هذه الجهود الفردية المنظمة خصبا وحياة
وقدرة ونوراً !!!

وإذا خرج الفلاح الى حقله في الصباح خلع ملابسه هناك
ليستعد للعمل المجهد ، فتراه واقفاً في غيطه أما باحثاً مفتقداً مسارب
الماء ليروي زرعه ، مجتهداً في أن يزيل كل عائق أمام الماء ليجري
خالصاً حراً في القنوات الضيقة ، وأما جالساً على نوره في (الجرن)
يدرس قمحه او برسيمه أو فوله ، وفي أي وقت ؟ في ساعة الظهيرة
حيث لا ترحم الشمس أحداً ! ومع ذلك تراه حافي القدمين عاري
الرأس ، متحملاً حرارة الشمس بجلد كريم وصبر جميل غير ناغم
على هذا الوجود ونظامه الذي يضطره أن يسلك في سبيل العيش
والحياة هذه المسالك الحشنة الوعرة ، بل مستمرثاً كل هذا الجهد

وعذا الألم في سبيل، أن يحيا وأن يعول أولاده المساكين !
وفي الوقت الذي أراد القضاء الاعلى ان ينام فيه ناس ويتقلبوا
على الدمقس المقتل والاسرة الناعمة الهزازة والوسادات الحريرية
الرخصة .

في هذا الوقت يجلس فيه صاحبنا الفلاح على نورجه هذا هو
وماشيته الامينة الوفية ، تحت نار الشمس ووهجها وسفع التراب ،
ليغذي العالم بخيرات غرسه وبركات زرعه ، وليحییهم من عرقه
ومن شبابه ومن قلبه ودمه بل من حياته جميعا .

تراه في حقله مشمرا عن ساعديه بمجد ونشاط ومرح حاملا فأسه
يفلح بها الارض ويضرب بها بين الحشائش لينقذ زرعه من شرها ،
منحنيا بظهره لا يرفعه الا لياخذ نصيبه من الراحة ولو قليلا ، ممسكا
بمحراثه الخشبي العريق في القدم يشق به الارض شقا ويقلب عاليها
سافلها ، أو يحمل الردم والسباخ لاولاده الصغار الذين يشاركونه
في عمله ويقاسمونهم تعبهم وهموم عيشه ، ويظل في عمله هذا حتى اذا
حان الغداء حملت اليه امرأته سلة من الخوص بها بضع ارغفة من
الاذرة او الحلبة ، ومعها قطعة من الجبن او جانب من المش والبصل
أو (الخقل) أو العسل الاسود او اللبن الرائب ، وهذا هو غذاؤه
معظم الايام ان لم يكن كلها ، ولكنه قانع بعيشه راض بهومومه على
خشونته وبساطته .

واذا ما آذنت الشمس بالمغيب والتهب قرصها وراء الاشجار

وبين دكنة السحب ، عاد صاحبنا من عمله ومعه ماشيته وآلاته ،
وعلى وجهه ابتسامة الرضي والبشر ، وجلال الايمان وخشوعه ، يجري
في عروقه دم النشاط حاراً دافقاً كأنه لم يعمل شيئاً في نهاره يظلم هذه
الابتسامة أو يغضن هذا الوجه الباسم الراضى ، وكأنه بذلك عاهد
اخته الشمس على ألا يخرج الى عمله إلا معها مشرقة ، ولا يعود من
عمله إلا معها غاربة ، وفاء دونه أي وفاء ، من الفلاح لشمس
الفلاح !

ولكن هذا الفلاح الهاديء الباسم في غيطه وعمله ، تراه
يقف فائره اذا علم أن دور الماء أتى واعتدى عليه غيره ، بحيث يعوقه
عن ري زرعه ، واحياء خلاصة لحمه ودمه وحياته جميعاً ، هنا
تخبيء نفسه الطيبة الهادئة الوديدة الى حين ، وتظهر نفسه الشرسة
الباطشة ، يحاول أن يمنع هذا المعتدي على الماء ، فان أبى فليس أيسر
لديه للبطش به من (النبوت) يشج به رأسه أو يهشم أضالعه ،
حتى لو استحسنت الحقائق وضافت به آلات البطش والضرب ،
فألى الفأس يقضي بها عليه ، فالما حياة زرعه وزرعه حياته هو !
ندع الفلاح الآن قليلاً ونعود الى شمس الريف الجميلة ثانية ،
فلقد شاهدناها مشرقة باسمة جميلة ، في يقظتها وفي مطامها ، وفي
فتنتها وفي بهرها ، بين ضباب الفجر وبلل الندي ، وروح الازهار
والرياحين ، فلنشاهدها غاربة باسمة أيضاً ، ولنقف أمامها نقدم

فروض التقديس والعبادة والخشوع ، لخالق هذا الكون العظيم في
سعته ، العظيم في سره ، العظيم في صمته وفي افصاحه وبيانه
شمس الريف الجميلة الجليلة العظيمة ، معبود اجدادنا في اعماق
القدم وطفولة الزمن ، يعبدون فيها الدفء والحرارة والحياة والقوة
والخير جميعاً ، هذا المعبود العظيم للفراغة العظام ، وهذه « القوة »
العظمى المقدسة ، لأولى الجبروت والقوة والقداسة

هذه الشمس الجميلة المهيبة المقدسة ، لن تراها جميلة حسناء
فاتنة جليلة ساحرة في خير من الريف ! ما أجملها وما أجملها حين
تتوارى في صفحة السماء الزرقاء ، فاذا بالزرقاء حمرة ، واذا بالحمرة
جمال وجلال وفتنة وقداسة وعبادة ، وما شئت من فنون السحر
والبهر ! ما أجملها حين يتأهب قرصها الاحمر الوردي في أتون السحب
المتقطعة المتناثرة الالهية ، في قتام مهيب حيناً ، وفي نور جليل نقي حيناً
آخر ، في هذه الحمرة انوردية أو هذه النار البرتقالية ، يتمثل قداسة
الماضي وطفولته وقدمه ، وعظمة الحاضر وقوته ونشاطه ، وآمال
المستقبل وأحلامه وأسراره ، وفي هذه الصور من القداسة والجلال
والعبادة ، لآلهة الدفء والحرارة والحياة ، وفي هذا الماضي والحاضر
والمستقبل ، تتجلى « وحدة الوجود » ، ويبرز « الكل الاعظم »
متآلفاً متآخياً مع (الجزء الصغير) ، مع العضو (المنفعل) أو مع
القوة (السالبة)

يعود مع الشمس كما خرج معها جماعات الفلاحين بما شيتهم من

ابقار وجاموس ، وبحميرهم ، وبأغنامهم وبكلابهم أيضا ، وبصغارهم
راكبين الحمير أو على ظهور الجاموس ، وكلهم هو جميل صوت الفلاح ! ،
صوت تتمثل فيه الطمانينة النفسية والرضى والقناعة ، وهو عائد من
عمله ساعة الغروب يسلي نفسه بتلك الاغاني الريفية الجميلة في براءتها
وسذاجتها !

هذه الحركة الحية الشاملة كل نواحي القرية نهارا ، وهذه
الجموع العديدة من الرجال والنساء والاطفال ، لا تلبث كلها أن
تهبط بعد الغروب وتسكن الى الدور تستجم فيها من العناء ، وتجدها
فيها الدعة والراحة والسكون ، فلا تعود تسمع صوتا ولا جلبة ، ولا
هيق الحمير ولا غناء البقر الذي كنت تسمعه في النهار ، فلا آن ساد
السكون ، وتسلم الليل زمام الحكم ، وعم الظلام الداجي الرهيب
وهذأت الحركة ، وسكن الزوج الى زوجته وأولاده يمد لديهم
راحته من عمله وهناءة عيشه وسلاوى همومه وتعبه ، وأين يجد
الآباء هناءة العيش ورفهه ، في خير من عناية الزوجات وعبث
الأبناء ولهو الأطفال ! !

لعل خير ما في ريفنا هدوءه وسكونه ! فهذه القرية التي كانت
مظهر نشاط شامل ، ومعمل حركة دائمة وحياة دافقة ، قد خيم
عليها الهدوء وغلتهارهبية الصمت البليغ وخشوع السكون المهيبة ،
وسكن الناس الى ديارهم الفقيرة في ذلك الليل الرهيب رهبة الموت
وفزعته ، ويأما أرهب الليل في الريف ! سكون تام عن الحركة ،

ونوم كأنه موت ، أو موت كأنه نوم ، أو صلاة صامتة وتسبيحة
دائمة ، وعبادة خاشعة ساكنة ، وفناء الوجود كله في آله الوجود
وخالق الكون ورب السموات والأرض ، فناء حي بطل ، مستمر ،
قوي في ضعفه ، سريع في ريثه وبطئه ، شاعر في خوده وسكرته ،
عالم في جهله ، متعبد في صمته !

في هذا الصمت الخاشع لم تعد تسمع صياح الأولاد في الغيطان
ولا صوت (الفرقلة) يضرب بها الفلاح بقرته أو جاموسته ،
ولا يقرع أذنك صوت الحخير المنكر ، ولا غشاء الجاموس والبقر ،
ولا صياح البط والأوز في الترع ، ولا شجار جماعات الفلاحين
ولا مشائمة النساء لسبب وآخر ما سبب ، فكل هذا قد هدا إلى
حين بين بطون الليل وغياهبه ، واستكن في ظلماته ودكنته ،
واطمان الناس إلى الحياة هادئة راضية ودیعة آمنة في سواد الليل ،
بعد أن أصابهم الجهد ونال منهم اللغوب في بياض النهار ، وعدت
لا تسمع حفيف أوراق الشجر ولا هسيسه ، يلاعبها الهواء وتعبث
بها أشعة الشمس اللاهية ، ولكن عم السكون كل شيء ، ونام كل
شيء عن الحركة ، وباتت القرية ساكنة هادئة في ظلمة الليل الرهيب
متهجدة متعبدة قانتة ، تحمد الله على أن حبا أهلها فيض الزرع والخير
ونعمة العافية وسعادة الطمانينة والرضى ، ومتى تحلو العبادة وترفع
الأدعية خالصة طاهرة في خير من رهبة الليل وظلمته ؟ ومتى يناجي
الآله وتصد إليه الشكايات والآلام والجراحات في خير من نوم

الطبيعة والفناء الحي للوجود ؟ وأين يكون الليل أشد رهبة وأبلغ صمتاً وأكثر وحشة منه في الريف ؟

هذا فلاح مسكين شقي ، جلس الى مصلاه المتواضعة المفروشة بالقش وبأعواد البردي وبالحصير البالي . على حافة التربة ، في سكون الليل ورهبته وفي نوم الوجود وغفوته ، يقدم لربه فروض العبادة والخشوع ، ويسأله أن يفرج كربه وأن يجيب سؤاله وأن يشفي مريضه ، وهذه امرأة مات زوجها عن أطفال صغار لم يعرفوا بعد غدر الزمن ولا هموم العيش ولا جهاد الحياة ، ترفع أكتفها ضارعة الى الله ملاذ البائسين ورب السائلين ، أن يكف هؤلاء الصغار برحمته وعنايته ويجود عليهم بمنه وفضله ، وأن ييسر لهم من الرزق والخير ، فهي أعجز من أن تعوهم وأفقر من أن تقوم بعيشهم ، وهو تعالى أكرم مسئول !

وهذا فلاح آخر جلس أمام داره بعد أن نام أطفاله ، وبعد أن سجد الليل وابتدأت القرية في صلاتها وعبادتها ، يسأل الله بصوت يقطعه ذلة البؤس وتخنقه عبرات الأسى وأوجاع الشقاوة ، أن يمكنه من تسديد ديونه لما لكه الذي لا يرحمه ، وأن يرفع ثمن القطن هذا العام حتى يتيسر عيشه وحتى يمكنه أن يكسو أولاده وزوجه من عريهم ، وأن يبارك له في محصوله ليعوض بذلك من محصول العام الماضي ، حيث خانته الحظ وعاكسه القدر واستبد به الملاك !

في هذا الهدوء الشامل الرهيب ، وفي هذه الصلاة الخاشعة

الصامته ، تسمع صوت المؤذن في المصلى يؤذن بصلاة العشاء فتعزرك
هزة الأيمان وتعالى عليك كل قواك وكل وجودك قداسة العبادة
وجلالة الخشوع ، فترهف بأذنك مع القرية الهادئة الساكنة ومع
النبت النائم المتعبد ، ومع أوراق الشجر الناعسة المسبحة القائنة
المرتلة ، ولا يسمعك إلا أن تستسلم ، وإلا أن تندمج وتتحد مع هذه
« العابدات » ، والا أن تشاركها في صلاتها وفي تراتيلها ، والا أن
تفنى معها في فناء الوجود كله في ذات الله العليا المقدسة !

يسلمك هذا الصوت الخاشع الجميل وهذه الصلاة الدائمة وهذا
الفناء الحي الى الذكريات العديدة ، فتذكر نفسك وتذكر علاقتك
بربك وواجباتك اليه ، وتقودك هذه الذكريات الى أن ترفع رأسك
وتحدق في السماء وتحتلي جلالها مزدانة بالنجوم المبتوثة المتألقة في
صفحة السماء الدكناء في ذاك السواد الرهيب ، فتفكر في نفسك
وفي وجودك ، وفي هذا الكون اللانهائي العظيم الذي تعجز عن
ادراكه وفهمه عقولنا ومداركنا وكل ملكاتنا ، ومع ذلك يدعونا
الغرور والكبرياء الانساني الى أن نظن أن عقولنا قادرة على
ادراك كل شيء وتحقيقه ، وأن مشاعرنا في مكتبتها أن تحس وتشعر
بكل ما في الوجود والكون ، وفي الحق أننا لا نفهم قليلا ولا كثيراً
حقيقة من حقائق هذه الوجود فهما حقاً صادقاً يمكننا أن نطمئن اليه
ونقتنع به ، فما يدرينا أن هذا حق وما يدرينا أن هذا الذي نسميه

« عقلا » قد لا يزيد معرفتنا تذبذباً وهدوءاً قلقاً و يقيناً شكاً ،
وما يدرينا أن حكمه صحيح أو خطأ ، سليم أو سقيم ؟
يقول أنا تول فرانس : « كل ما خطر ببالك فالكون بخلاف
ذلك » فإذا كان هذا حقاً ، فماذا ندرك هذا الكون ونفهم هذا
الوجود إذا كنا لا نظمئن لا إلى حكم العقل ولا إلى شعور القلب ؟
أهكذا قضى علينا بأن نعيش مشردين ملفوظين أمام هذا الباب
القدسي الموصد أمامنا ، محرومين معرفة الوجود الذي نعيش فيه
والنور الذي نراه ، غرباء حتى عن « أنفسنا » ؟ ؟
أهكذا قضى علينا أن نصرخ ونهتف مع المعري حين استحسنت
عليه حلقات الخيرة وحفره التشوف إلى المعرفة فصرخ صرخة من
اللحم والدم ، من نسيج الأسمى وذلة الضراعة
جهلنا فلم نعلم على الحرص ما الذي
يراد بنا والعلم لله ذى المن

إلى أن قال

طلبت يقينا من جهينة عنهم
ولم تخبريني يا جهين سوى الظن
فان تعهديني لا أزال مسائل
فاني لم اعط الصحيح فأستغنى
أين عقولنا ومدار كنا وقلوبنا من هذا الملكوت الواسع وذلك
العالم الكوني اللانهائي العظيم ؟ ما هذا الكون ؟ وما كنهه ؟ وما

غايته؟ وما مداه؟ ومن نحن في هذه العوالم السكونية الواسعة العديدة؟
وماذا وراء هذه السماء، وهذه النجوم؟ ماذا تحت هذه الأرض؟
وماذا عند هذه الكواكب؟ وماذا وراء هذه الحياة؟ الموت؟
وما الموت؟ وماذا بعده؟ ولماذا؟ وما لون هذه الحياة الأخرى
الموعودة؟ وما صلتها بحياتنا الأولى؟ وإذا كان الموت هو خاتمة
حياتنا الأولى فما هي خاتمة حياتنا الثانية؟ وما البعث؟ وما الحقيقة؟
وما الوجود؟ وأين ينتهي؟ ومن نحن؟ وماذا كنا ومن أين أتينا
والى أين نذهب؟ وماذا كان الوجود وماذا كانت الحياة؟ وماذا
يراد بنا؟ وما غايتنا من حياتنا؟ وماذا نعرف؟ لا شيء!

تلك وجوه أسئلة قد تمر بخواطرنا إذا رفعنا رؤسنا إلى السماء
نحتلي سرها ونفكر في جلالها وعظمتها ورهبتها، ولسنا نملك في هذه
الحياة إلا أن نسأل والا أن ننادي، فنحن نناديه تعالى كما يقول
لامارتين — وان لم يسمع، فأن عظمتنا في أن ندعو وعظمته في
« ألا يجيب »

إلى أي حد نصدق العقل ونقبل حكمه راضين مطمئنين؟
وترى ماذا يحل لنا مشكاة الوجود وسر الخليقة ومسألة المسائل:
هل هو العقل؟ هل هو القلب؟ هل هو الأيحاء؟ هل هي الغريزة؟
هل هو الإلهام؟ هل هو الكشف أو الوجد؟ وبماذا نعرف
« السر؟ بماذا نفهم « المجهول »؟ هل بالحب كما يقول « تاجور »
والمتصوفة؟ أو هل بالعلم؟ أو بماذا؟ أو ترى أن « المعرفة » ليست

من حقوق الانسان او اختصاصاته في هذه الحياة ؟ لعل هذا هو
الأقرب الى الحقيقة الضائعة « المجهولة » !

لقد نقد « كانت » العقل البشري في كتابه (نقد العقل
المجرد) وأظهر أنه لا يعيننا على المعرفة ولا يساعدنا على الوصول
الى الحقيقة وأنه معرض للخطأ في حكمه وأنه لا يرينا الا صورة
الحقائق لا كنهها وأنه لا يجدر بنا ان نتلقي حكمه بالقبول الأعمى
وبالاستسلام المطلق ، واستنقصه أيضا « برجسون » في كتابه
(التطور الخالق) وبين فيه ان عقولنا وحدها عاجزة كل العجز عن
استظهار حقائق الحياة وفهم السكون فهما يرضينا ويقنعنا ، وأنها
لكي نفهم الحياة ونستقرها فهما كاملا واستقراء مرضيا ، يجب ان
يكون فينا « اللاوعي » النبات وغريزة الحيوان وبصيرة الانسان !
هذا ولا يزال استنقص العقل كمعيار ثابت للحكم على الاشياء
والوصول الى الحقائق سمة هذه العصور وهذا العصر الذي تزعزع فيه
الثقة بكل شيء لا يتفق ونظرية التطور الذي هو سنة الحياة ، هذا
العصر الذي اصبح لا يعني الا بالواقع المحسوس والذي اخذت
تتزعزع فيه الثقة بالعلم وبما أخرج للناس كهاده يهدينا جميعا الى ادراك
اسرار الانسانية والى فهم الوجود والى علاقة الجزء بالكل والفرد
بالوجود وبخالفه الاعظم ! وغاية آمالنا أن يهتدى هذا العالم الجديد
الى النور الذي يكشف له ما خفى من حقائق الوجود وما استبهم من
اسرار السكون ، وان يكون نورا ينير العقل ويرضي القلب ويقنع

الروح ، نوراً ينقذ الانسانية من هذا الظلام الروحي الذي تتخبط في غياهبه ومن هذا الأسر الذي تعيش فيه ، حتى تؤتي آثارها وتنتج ثمارها في ظلال الدعة والطأنينة واليقين والسلام والحب والخير والايمان

واذا ما أخذ الليل الساجي يهصر استاره ويرفع نقابه ، وانبايح نور القمر يتحلب بين اشجار السنط والصفصاف والكافور ، استيةظ الفلاح من نومه على صوت المؤذن يدعوه الى الصلاة قبل ان تطلع الشمس على العباد تحييمهم تحية الصباح السعيد ، واشتركت ديكة الصباح في الدعوة الى اليقظة والى الصلاة ، وما أجملها تقف على اسطحة الدور بأعناقها الطويلة وريشها الجميل توقظ الفلاحين من رقادهم وتحثهم على القيام بواجباتهم والصلوات لربهم ! وفاء للفلاح أى وفاء حتى من الديكة ! وكم يكون جليلاً خاشعاً رهيباً نداء المؤذن : الله اكبر ! والناس نيام والطبيعة كلها متعبدة قاتنة ناعسة يقظة !

الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر ! الله اكبر في جلاله وعظمته ، الله اكبر في خلقه وابدائه ، الله اكبر في رحمته وغفرانه ، الله اكبر في نعمه واحسانه ! هنا يغمر النفس خشوع الرهبة وجلالة الايمان وقداسة الدين ، هنا تتحد النفس مع الله وتفتى فيه

اتحاد حب ومعرفة وولاء ، هنا امام هذه الحكامة المقدسة العظمي الجليلة الرهيبة الجامعة ، وامام هذه الطبيعة الشاعرة الناطقة في صمتها

وفي كلامها وفي حركتها وفي سكونها بعظمة الله وبجلال السكون
وفسحة الوجود ، هنا تنطوى « النفس » وتنحنى لتفتى في الله
وتندمج في الطبيعة وتجد « نفسها » وتشعر « بذاتها » وتخرج من
« الافيديا » (AVIDYA) من هذا الجهل بالشعور بالنفس كما يقول
« تاجور » ، الى النور والى الحب والحق ، هنا تهتف النفس صائحة
فرحة باسم الله وتدع من مثل « داروين » رجلا مؤمنا وتضطره أن
يصيح وان يهتف : يستحيل على العقل الرشيد ان يمر به خالجة من
الشك في ان هذا العالم الفسيح بما فيه من الآيات البالغات وتلك
الانفس الناطقة المفكرة قد صدر عن مصادفة عمياء لان العلماء لا يخلق نظاما
ولا يبدع حكمة ، وذلك ا كبر برهان عندي يقوم على وجود الله
هنا تنهزم العدمية (النيهيليزم) ويتبدد الأخدود يعلو الحق والايمان !!!
لقد انسيت أن اذكر حين تحدثت عن الفلاح أن اخلف
وأوفى صديق اليه هو كلبه ، فهو في الليل اما ان يأخذ مقعده على
سقف الدار واما امام بابها ، ولا تغفل عينه عن حركة يشعر بها ولو
هسيسا ، فان رأي ولو طيفا أو خيالا ولو لم يكن في حارته فضحه
بالنباح العالي ، ثم تسرى عدوى النباح فتغرد القرية كلها نباحا
وصياحا ، وفي النهار يخرج مع المواشي أو مع الاغنام ولا يعود
الامعيا ، واذا حدث ان اعتدى على سيده احد دافعه عنها الكلب
قدر جهده واستطاعته ولو تذهب في سبيل الذود عنها وعن صاحبه
حياته ولو يخرم الرصاص قلبه أو يمزق جسمه !

فأين وفاء الانسان من وفاء الكلب ؟ وأين غروره وصافه من
 شجاعة الكلب وتواضعه ؟ وأين غدرة وخيائنه من اخلاص الكلب
 وأمانته ؟ فاذا ذكرت وفاء الكلب لصاحبه في الريف قادتني
 الذكرى وسرى بي الخيال والخطر الى كلب « لا مارتين » وكيف
 خاطبه ولاطفه وتجنب اليه حين قال له : « ان كنت أيها الكلب
 راقدآ في مواطئ النعال فلا أذكرك ان قدمي مستك يوما ما احتقارا ،
 كما اني لا أذكرك اني زجرتك يوما بكلمة تجرح حنانك وشفتك »
 وليس كلب « لا مارتين » وحده هو الجدير بأن يأنس اليه
 صاحبه ويخاطبه ويجد لديه العزاء والسلوى عما في الحياة من مكر
 وخديعة وكذب وغدر ، وليس « لا مارتين » وحده الذي تعوزه
 السلوى فيتفقدوها عند الكلب وعند الحيوان جميعا ، وقد افتقدوها
 عند الانسان النبيل الكريم حتي لم يعد يؤمن بصداقة ولا يعتقد في
 اخلاص ، بل كلنا « لا مارتين » ، بل كلنا نجد في حياتنا كل يو
 وكل لحظة غدر الأصدقاء وتنكرهم ساعة الشدة وتكالبهم ساعة
 الرخاء ، وكلنا مهتف مع المتنبئ قائلين : « اذا عظم المطلوب قل
 المساعد » ونصرخ مع المعري في صرخته المرة
 ومن عاش بين الناس لم يخل من أذى

بما قال واش او تكلم حاسد

وكل من رأى في تجاربه الخاصة نكران الجميل ودناءة الأصل
 والخيانة من أعز الأصدقاء عليه وآثرهم لديه ، وكل من هزأ وسخر

وشك شكايكاد يكون انكارا لصداقة الانسان المزعومة ولوفائه الكاذب واخلاصه الاجوف ، ويبحث عنها عند الحيوان الذي لا يعرف الكذب ولا الخداع ولا الزاني ولا الرياء ، وأصبح كل منا تقريبا « لا مارتين » نجلس الى كلابنا والى قططنا الصغيرة الجميلة البريئة نستدنى ، لديها بحرارة الوفاء ، ونجد فيها جميل السلوى وحسن العزاء ، وبماذا نعزى نفوسنا في هذه الحياة الطويلة أمام هذه الضروب المختلفة من غدر الاصدقاء وتنكرهم وكيدهم ، ومن خصومة الاعداء وانتقامهم ومن عداوة الزمن وقسوته ، بماذ نرفه عن نفوسنا المعناة وقلوبنا التي طفحت بالغضب وبالسخط وبالوان الهموم وصنوف الأذى ، اذا لم يكن بكلب نلعبه ونخاطبه ونلمس عليه ونصاحبه ونماشيه ، أو بقطعة صغيرة نضعها على ركبتنا ونعبت بشعرها الناعم الجليل ونشاكسها ونلعبها ، ونجد لديها راحة الجهد وجمال العبث وحسن السلوى وخير البر والوفاء ؟ !

لا أريد ان اترك هذا الفصل قبل أن اقول كلمة عن « حياة اللهو » في الريف ، وفاء للعهد مع القاريء الكريم ان تصور له حياة الريف المصري تصويراً ان لم يكن صادقا كله فهو قريب من الحق والصدق ، وهذه هي بغيتنا وقصدنا من هذه « الأحاديث » أو هذه الرسالة : محاولة متواضعة لتصوير ريفنا وفلاحنا للبيئة المدنية التي تجهلها ويجهلها

وماذا تتصور أن تكون حياة اللهو في ريفنا المصري السادر

الساكن الذي تنقصه « الحياة » والحركة ، المحروم من كل وسائل الاستمتاع بالوجود استمتاعا مرفها مرضيا ؛ لقد ذكرت لك أن « أوساط الجمال الحي » في ريفنا المصري ليس فيها الغذاء الروحي الكافي لقلوب طامحة وعقول خالقة محققة ونفوس أبية كريمة كبيرة ، وإن معنى « الحياة » عندنا يقدر بمقدار ما تدر علينا الحياة من أرزاق ومنافع وحاجات ورغبات وشهوات ، أما الغاية من الحياة لأنها « حياة » ، أما أنها وسيلة وغاية ومثل أعلى فلا نغنى بهذا قليلا ولا كثيرا ، وإذا كنا نفهم الحياة هذ الفهم وننظر إليها بهذا المنظار فقلما نغنى بالبحث عن وسائل الاستمتاع بها استمتاعا يغذي قلوبنا وأرواحنا ويرضي طموحنا وكبرياءنا وآمالنا وقلما نفكر في العناية باللهو والعبث والسلوى وخاعة « بثقافة الجمال » و « برسالة الحب » ونحن بذلك إنما نعطل ملكاتنا ووظائف أعضائنا التي حبها الله لنا ووهبنا إياها لنستخدمها في وظائفها ولنستمتع بما خلقت من أجله ونحن بذلك نوحش من حياتنا ونضيق من فسحاتها ونحقر من قدرها ، ثم نشكو منها ونتألم لأنها لا ترضى رغائبنا ولا تحجب حاجاتنا ، ولو انصفنا لشكونا أنفسنا وأنحينا باللائمة والتقصير على عقولنا التي نقيدها بالتعصب والعماية والتقليد ، وعلى قلوبنا التي نغلقها ونظلمها بالجهل والافراط والاسراف في المجون والعبث ، وعلى أرواحنا التي نأسرها بالكسل وبالتراخي وبالهمود ، ثم نتذمر ونلعن نظام الوجود الجائر لأنه لم يجعلنا في عداد السعداء المترفين الرافهين العلماء النابغين

ونصخب ونثور ونكسب ونحقد ونحزن ونبكي ، ولو كنا قنابة
 عادلين اشكونا وصخبنا وتألما من انفسنا ، من بعض أغنيائنا أرباب
 الأرض والطين وأصحاب المنازل والقصور والمناظر المقنطرة من
 الذهب والفضة المسكنة في طيات الورق وتحت الوسائد وأحجار
 البلاط ، الذين خلقوا فألفوا انفسهم اغنياء عن آباؤهم وأجدادهم في تلك
 العصور السود ، عصور الاقطاعية والجبروت والاستعباد ، ثم شراء
 متع النفوس وحاجات القلوب بالضيايع وبالقصور وبالغدادين ، فلم
 يتذوقوا ألم الفاقة ولا أوجاع الأسي ولا هموم العيش ولا ذلة السؤال ،
 ولم تخمض بطونهم من الجوع أو تنحل اجسامهم وتستحل ألوانهم
 من كثرة الشكوى والخاف الرجاء وطلب العون ، ولم تهطل من
 عيونهم يوما دمة البؤس ممتزجة بدم الوجيعه وجراح الفقر ، فليس
 بغريب أن تصم آذانهم أمام شكايات البائسين وأوجاع المحتاجين ،
 وان تغلق قلوبهم المتحجرة أمام أصوات السائلين وصرخات
 المعوزين ، وليس بعجيب أن يتصاموا عن استماع صوت « الاصلاح »
 لأنه لا يعينهم أصحاب الطين والقصور بل يعنى هؤلاء المساكين
 الفقراء « عبيد » هؤلاء « الأسياد » في عصر زالت فيه العبودية
 والسيادة ، وهذا الصنف من الأغنياء الأشحاء الجامدين في مصر
 يذكرنا بقول صاحبنا « روسو » عن أغنياء فرنسا ، قال « لم يكادوا
 يذوقون لذة الأمانة حتى احتقروا غيرهم وحتى أصبحوا لا يفكرون
 في شيء إلا اخضاع الناس واسترقاقهم ، مثل الذئاب المتوحشة التي

لا تكاد تذوق طعم دم الإنسان حتى ترفض أي طعام آخر
ولا تتلذذ إلا اذا شربت منه»

ولست أدري ما الذي قدمه هذا الصنف من الأغنياء الى بلادهم
التي أثروا من أرضها وابتنوا قصورهم تحت سماءها، وملأوا بطونهم
وجيوبهم من ثمارها وخيراتها، ماذا غير تصعر الحدود وانتفاخ
الوجوه، وهز الأكتاف وإيماء الرؤوس والحديث بالإشارات،
والتلوي والتقطع في الكلمات، والخطاب بالأنوف والنظر بالأقدام
والركل بالأرجل، ثم طي الأرض والشوارع بالسيارات والهبوط
بالمجانن الغائيات، وبذر الأموال على الموائد الخضراء وقضاء
ثلثي العام كله في الغرب بين الأندية ودور المجانة ومصايد النساء؟
هنا يحضرنني قول «روسو» وصرخته العالية المرة حين أذكر
وأنا أتألم هذا الصنف من الأغنياء الذي ابغيه وأتصوره حين
أكتب هذه السطور، وهو صنف معروف بيننا جميعاً يكاد لا يشعر
بشعورنا ولا يتألم لآلامنا، وكيف يده عنا حين يجب أن يبسطها،
ويوصد أبواب أمواله المكتنزة أمام صيحاتنا وشكاياتنا في كل
خطوات اصلاحنا حين يجب أن يفتحها، قال «روسو»: «ماذا
صنعت العائلات التي تسمى شريفة لمجد وطنها أو لسعادة بني الانسان؟
وماذا انتجت في أكثر البلاد التي سطع نجمها فيها إلا أن ظهرت
عدوة للقوانين وللحرية وإلا ان أعانت الاستبداد وظلم الشعوب؟»

نعم ! يؤلمنا جداً أن يكون بعض أغنيائنا على هذه الحال
 فلا يألمون لآلامنا ولا يشعرون بشعورنا ، يؤلمنا أن ينحوا أنفسهم
 عن الميدان وعن العمل وعن عملية الإنشاء والبناء والأصلاح ،
 فكأنهم ليسوا منا ولسنا منهم ، وكأن مصر هي وطننا وحدنا أو
 وطنهم وحدهم لأنهم « أصحاب المصالح الحقيقية » فيها كما أذيعت
 هذه العبارة في هذه السنين ، يؤلمنا أن يكون في أيديهم طب الداء
 وعلاج الحال ثم يقعدون ويتنحون ويسمون ويسخرون !
 نعم ! ان شكونا أحداً في كل ما نشعر به من بؤس وضنك
 واحتقار لمعنى « الحياة » وحرماننا من الاستمتاع بها وجهلنا
 « بثقافة الجمال » وتكاسلنا عن كل وجوه الإصلاح وتأخرنا عن
 الأتم التي تجري وتعدو ونحن نزحف ونحبو ، فأما نشكو أولاً
 هذا الصنف الجامد من أغنيائنا وثانياً حكوماتنا وذلك لأن مصالح
 البلاد تهم فئة « المحكومين » أكثر مما تهم فئة « الحاكمين » ،
 لأن المحكوم هو الذي يشعر بالآلم وهو يفهم الفقر ويعرف الأسى
 ويقدر « الأصلاح » ، فحسانا نقبل على عصر جديد يشعر فيه
 أغنياؤنا بقيمة « الأصلاح » وبالحاجة إلى العمل والأشتراك مع
 الأمة في كل وجوه السعي والسكد والبناء ، يأخذون نصيبهم من
 الجرد والنشاط وتقديم مواهبهم واستعدادهم وثروتهم لأصلاح هذا
 « الهيكل » المتهدم وتطبيب هذا « الجسم » المنهدم من التعب
 والمرض ليقوى على الحياة ويصبر على التنازع على البقاء ويثبت في

« الأنتخاب الطبيعي » ويشع القوة والعمل والخصب والخير جميعاً
شرقاً وغرباً !

ونعود ثانية الى ريفنا وهواه بعد ان أبعدنا عنه قليلاً حضرات
الاغنياء .

لسنا نعرف في القرى ما نعرف في المدن من الملاهي والنوادي
للتمثيل وللهو وللمحاضرات والمناظرات ، أو مشارب للقهوة وما
فيها أو ملاعب للنرد والبليارد ، أو مراقص للفتيان والفتيات ولحبي
الجمال وعشاق الحب ، ولسنا نعرف فيها دوراً للسينما ولا نوادي
للرياضة ولا مكاتب لحبي الأدب وعشاق الاطلاع ، ولسنا نرى
فيها ما نرى في المدن من متنزهات ، ورياض وحدائق بأسقة عاطرة
بالورود والازاهير غاصة بمسكات الحسن وما مسكات القلوب وزينة
الحياة الدنيا ، ولسنا نسمع فيها ما نسمع في المدن من أصوات
الكنججة والعود والبيانو (والجازبند) !

يفارقنا كل ذلك اذا ما وطئت أقدامنا الريف المصري ، واذا
كان ريفنا ساكناً ساذجاً فقيراً من « الحياة » ومن الحركة
فكذلك حياة اللهو فيه بسيطة بريئة لا تزال عليها مسحة البداوة
الريفية ، لا تحركها بواعث « الحياه » بل هادئة ناعسة حاملة في
في الماضي الدابر والعصر الغابر ، فلا يعرف الفلاحون من أدوات
الموسيقى الا « الارغول » والمزمار والطبل البلدي و « السلامية » ،
وقد يكون لهذه الموسيقى الريفية جمال ، بل في الحق لسننا ننكر

ما فيها من جمال يملك علينا قلوبنا وحواسنا حيناً ، بنبراتهما الريفية
البريئة العارية عن كل غموض وتعقيد وحلى ، الهادئة الساكنة
المعتدلة الرفيقة كأبناء هذا الوادي المبارك الساجي الحالم ، ولو أنها
خلو من المعاني السامية والالهامات العليا والتيارات الروحية النبيلة ،
ولو أنها لا « تخلق » جديداً أو توقظ هامداً أو تبعث عاطفة ،
لكن مع كل هذا لها جمالها الريفي الصامت البري ، العاري عن
كل صبغة وتحسين ، نجنح اليه ونميل حيناً ، ساعة تكون عواطفنا
هائجة وملكاتنا الحاسة يقظة متعبة في العمل والحركة ، ساعة
تكربنا هموم العيش والتفكير في مصائب الحياة التي تنصب كل
لحظة كأنها الغيث الهتون ، هنا تهمد عواطفنا الهائجة فانية في هذه
الأنعام البريئة الرفيقة ، فننسى حيناً ما في الحياة من وصب وضنك
وشقاء !

الأرغول اذن (والسلامية) هما كل ما يعرفه الفلاح من
آلات الموسيقى ، وهو كثيراً ما يحمل أرغوله أو مزماره ويترنم به
في الغيطان والحقول الساكنة الحاملة ليرفه عن نفسه عناء العمل ،
وليهدد بها اغنامه ، وهو لا يعرف من ضروب اللهو والسلوى
وقضاء أوقات فراغه والاستمتاع بما في الحياة من لذة وجمال ،
الا الجلوس على « المصطبة » أو على حافات الترع والجسور ، أو في
الطريق يلعب « السيجة » بالأحجار في التراب ، والا « لعبة الخطب »
وهي المضاربة أو المبارزة بالعصى الغليظة

ومع فقر حياة اللهو في الريف وبرائها وبساطتها فقلما يزاولها
الفلاح المصري ، لان مشاغل حياته كثيرة تشغله عن ان يأخذ
نصيبه من الحياة الدنيا ، من اللذة ومن اللهو ، وكيف له ان يلتذ
ويلهو وحياته بطبيعتها لا تكاد تنتهي من العمل طيلة النهار فهو من
الغيط الى الدار !

وكم تراه فرحا مغتبطا تنفرج شفته عن ابتسامة السعادة والفرح
والاستمتاع بالحياة يوم عرس في القرية أو يوم « المولد » أو موسم
من المواسم أو ليلة من « الليالي » ، هنا تجده يتكالب ويتهافت
على مكان العرس أو المولد أو الليلة ليستمع الى مغن مشهور ، أو
غير مشهور ، أو مرتل كبير أو صغير أو منشد في حلقة الذكر ،
فيأخذ مكانه بين المستمعين ليرفه عن نفسه ويبرد قلبه ويضيئه باسماع
آيات كتاب الله الكريم ، أو قصائد مدح نبيه العظيم ، ثم تفجؤك
بل تروءك هبته وصيحاته العاليات الصاخبات ، صيحات الاستحسان
والاعجاب ، فيقفز من مكانه أو يلقى بما على رأسه من « طاقة »
أو « لبة » في الأرض ، ثم يهرول الى المقريء أو المغنى طالبا
منه إعادة ما يقوله وينشده ، لأنه حرك هامد عواطفه ، وأيقظ
نائم حواسه وأروى قلبه الصادي المغلق أمام منافذ الجمال والفتون
واللذة .

واذا أردت أن تتحقق من « يوم » الفلاح فهو يوم الموالد
للأولياء ، فتراه يبرح قريته ويتوجه الى مكان المولد مهما كان

بعيداً ومهما كانت الطرق اليه ملتوية عسرة ، وقد يسافر له خاصة ،
وقد يقترض من أجله ليوزع على الغانيات الساقطات بعض
ما يقترض ثمناً لا بتسامة ماجنة فاسقة أو قبلة أمام الأنظار جميعاً
من رجال ونساء وما الى القبلة من حاجات النفس الوضيعة السافلة
ورغائبها الساقطة القذرة ، نفس لم تهذبها التربية ولم يشذبها المجتمع ،
والبعض الآخر يشتري منه جانباً من « الحص » أو « حب العزيز »
أو « الحلاوة السمسامية » لزوجته وأولاده ولافراد عائلته من أقارب
وأصهار ومن كل ذي نسب ورحم ، وإذا ما وصل الى « التياترو »
أو الى « السرك » بمعنى أدق ، عرضت عليه المهازل والمساخر التي
تلائم عقليته المستعدة للهزل والسخرية ، وهناك تقع عيناه على أشد
المناظر فحشا وأنكرها فسوقا ومجانة ، وهو مع ذلك فرح مغتبط
لأنها تلائم شهواته وترضي عواطفه وتشبع ميوله ، وهناك تعرض
عليه رقصات البطن الماجنة الفاحشة من بنات الخلاعة والهوى
الفاسق ، وهناك يلتقى على سمعه وعلى سمع رجال الادارة أيضاً أغان
وأدوار كلها الفحش والفسق ، وكلها مما يجرّض مباشرة وجهاً على
هتك ستر الحياء وعلى الأغراق في المجانة والفسوق وما اليهما ،
ولا يبالي أصحاب هذه الملاهي أو هذه « الخوامير » بمعنى أصح
وأقرب الى الحق بوجود نساء بين الرجال يشهدن هذه المناظر
ويسمعن هذه الأغاني ، يشهدن رجلاً يحتضن غانية ويبصرن غانية
تتلوى وتهتز في حركات تهيج العواطف وتوقظ الشهوات ، ويسمعن

أغاني تخرض تحريضا صريحا على ما ينزل بالنفس وبالاخلاق الى
أحط ما يمكنها أن تنزل اليه ، ولكن لماذا يبالون وهم يرون في عرض
هذه المشاهد وهذه الأغاني رواجاً لسوقهم وربحاً أي ربح لتجارهم ؟
ولماذا يتخرجون وعواطف بعض النساء نفسها تريد ذلك وميوههن
تميل الى هذه الأغاني المماجنة وتلك المشاهد المغرية ، وأن بذلن كل
جهودهن ليخفين عواطفهن الباطنة وشعورهن الداخلي من تستر
واصطناع الحياء وادعاء الخفر ؟

واذا عرفت ان فلاحنا يرقص طرباً ويطير فرحاً لا بسط منظر
من مناظر اللهو ، فلا يأخذك العجب لو رأيت رجال القرية ونساءها
وأطفالها خرجوا جميعاً من دورهم مهرولين ليسمعوا ما يحكيه
« الفونوغراف » ، واشهد الله شهادة لاحث فيها ولا كذب ، أتى
قد كدت أبكي أسفا لعقلية جماعة من الفلاحين والفلاحات ولحرمانهم
من موارد اللهو وأمكنة الاستمتاع بالحياة واقدره على التسلية ،
يوم أبصرت هذه الجماعة في قرية صغيرة من قرى ريفنا المصري
لا تزال حية ترزق حتي كتابة هذه السطور ، ابصرتهم جميعاً
قعوداً ووقوفاً أمام « الفونوغراف » ينظرون بلهفة وبذهول الى
ذلك « الانسان » الذي يختبئ في نفير « الفونوغراف » ثم يغني
ما يردده هذا الفونوغراف ، ثم يحاولون أن يتعرفوا كل شيء عن
هذا الانسان المختبئ ، واني لا أذكر أتى رأيت بينهم امرأة عجوزاً
تراجع الى الوراء وجلاً وخوفاً لانها كانت قد سمعت « اسطوانة »

تحكى شجاراً وعراً كما فخافت أن تمسها عصا من عصيهم أو لطمه من لطماتهم ، : عقلية مسكينة جاهلة تستحق الرحمة والشفقة !

لقد ذكرت أن آلات الموسيقى في ريفنا هي الأرغول والسلامية ونسيت أن أذكر عاملاً ثالثاً مهماً في حياة اللهو في ريفنا المصري لا يخلو من خطر واهمية ، ذلك هو « الربابة » ويقابلها في المدن « الكمنجة » ، وإذا كنا نتقبل الاصوات والأغاني وأدوار الموسيقى بآلاتها المختلفة ونستحسنها ونسوغها بحسب ثقافتنا وتكويننا العلمي وتربيتنا الخلقية وبحسب استعدادنا لقبول الالهامات العليا وشعورنا بسلطان « الجمال » وادراكنا « للعالم الباطني » ، أقول إذا كنا كذلك فليس بعجيب أن تكون « الربابة » عند الريفيين ولدي العامة أشد من « الكمنجة » تأثيراً في العواطف وامتلاكاً للقلوب وللحواس جميعاً وأدعي الى ترقيقها وتهذيبها ، ولشد ما يهرع الريفيون الى ذلك الذي يسمونه « شاعراً » ويجلسون حواليه وتعتلى النساء أسطحه الدور ويتراعى الاطفال والاولاد تحت أقدام الرجال ، ثم يجلس هذا « الشاعر » على دكة خشبية ليظهر بين القوم ، ويمسك ربابته ويبدأ بتجربة الاوتار ثم يشفعها « بكحة » تتوالى المرة بعد المرة فيرهفون له آذانهم الصاغية ويسود عليهم جميعاً السكون وكأن على رؤوسهم الطير !

وهنا يبدأ هذا « الشاعر » بمديح النبي عليه السلام ، ولا يخلو هذا المديح غالباً من « التغزل » أو التشبب به ، فهو جميل ،

أ كحل العينين ، أدعجهما ، بهما حور ، احمر الخدين ، متورد
 الو جنتين ، دقيق الفم ، لؤلؤي الثنايا ، ياقوتي الشفتين ، والى غير هذا
 مما هو خليق بالحسان وبالعبد الجميلات لا بنبي عظيم صاحب دين كريم
 ودستور اجتماعي كبير خطير ، لا بمحمد صاحب « الرسالة » الكبرى
 ونبي الكتاب الاعظم ، ومن العجيب بل من الخجل حقا أن نسمع في
 هذا العصر الذي نعيش فيه وفي سنى تلك النهضة التي همضناها والخطى
 التي خطوناها ، أن نسمع عن « النبي » من الوصف ما نسمعه من
 المجنون عن « ليلاه » ومن كثير عن « عزة » ، ان هذه لا كبر
 وصمة تنزلها بديننا وأشد جريمة نرتكبها ضد « نبينا » ، ولقد حان
 الحين لأن نعرف عن « النبي » ما يليق باسمه العظيم وبدينه القويم
 وبرسالته الكبرى وبمذاهبه وتعاليمه الاجتماعية الروحية الفلسفية
 الخالدة أبد الآبدين وإذا ما عرفناه حقا وفهمناه كما يجب ان نفهمه ،
 هنا يكون حينا له وصلتنا به واندماجنا فيه وتبعنا وخضوعنا لتعاليمه
 ولسنته ، اقوى وأثبت وأصدق من هذا التغزل الخجل وهذه
 الالفاظ الحقيرة ، ولن يكون « حب الجهل » كحب المعرفة والفهم
 والأدراك !

ثم يتطرق هذا « الشاعر » من مديح النبي عليه السلام الى مديح
 أبي زيد الهلالي فيذكر قصيدته هو والزناتي خليفة ودياب بن غام ،
 وما أظهره كل من هؤلاء الفرسان الابطال في الحرب من ضروب
 الشجاعة الخارقة وما قاساه « الهلالية » من ألوان الهول والبأس ،

وكيف أذلوا « الزناتية » وقهروهم وأخضعوهم الى سلطانهم ، ثم
 يذكّر جمال « عاليه » امرأة أبي زيد ، ويتغزل فيها ويتشعب بكل جزء من
 جسمها ، ويفتن في وصف كل مظهر من مظاهر جمالها ، في صوت لا يخلو
 من جمال احيانا ، بحيث ترى الكل قد استفزتهم هذه الضروب من
 الشجاعة فحركت فيهم النخوة والبسالة واطهروا اعجابا بهؤلاء الابطال ،
 واعجابا باخا صا كله التفاني والولاء والتعصب « لأبي زيد » بطل الحرب
 ورجلها ، وعند اشادة « الشاعر » بمحاسن « عالية » وغيرها من النساء
 وبعيونهن وشعورهن وصدورهن ونهودهن ، ترى الرجال قد
 توسعت احداق عيونهم وانفرجت شفاههم عن ابتسامات لها
 معناها وعن ضحكات الاعجاب ، وتمثلت شهواتهم وبرزت سافرة
 على عيونهم وعلى وجوههم كأنهم يشهدون حقا « عالية » هذه ،
 وكأنها أمامهم تنفث فيهم سحر جمالها ودلالها ، وكأنهم يريدون
 أن يقتلوها نظرا وتفرسا و « زنا العيون » !

هذا الضرب من اللهو الريفى المصرى البسيط البالغ جمال
 البساطة وبراءة السذاجة ، ليس قاصرا على الريف بل يجد منزله
 حينما فى بعض احياء مدننا عند العامة ومن اليها ، وليس هو بقاصر
 أيضا على مصر وحدها ، فاننا نعرف « الالياذه والاولديسا » لهوميرو
 ان تحققت هذه النسبة من الوجهة التاريخية الادبية ، ونعرف أن
 اليونان القدماء كانوا خاضعين كل الخضوع لهذا الضرب من اللهو

وكذلك كل الامم في عهود بداوتها وفطرتها، وكانوا يتلذذون
حقا بالجلوس أو الوقوف حول « هومير » وغيره من القصاص
والشعراء يذكرون لهم الحروب القديمة وأبطالها ، واعمال هؤلاء
الابطال وشجاعتهم وبساتهم ، كل ذلك بأسلوب قصصي جميل له
جماله وله انغامه يتفق وعواطف القوم وميولهم وشعورهم وأوساطهم
وتربيتهم وتكوينهم ، ونحن نعرف ايضا ان لكل أمة بدويها
ومتحضرها ضرورهما من اللهو ، ولكل منها الطرق والوسائل المختلفة
لأرضاء عواطفها ونزعاتها ، واشباع شهواتها وميولها ، وحاجات
عقولها وقلوبها

واذا كانت أيام « الاعياد » تحسب من حياة اللهو ، فما هو
يوم العيد في ريفنا المصري ؟ تحس بتباشير « العيد » حينما ترى
كل امرأة تحيك ثياب أولادها الجدد ، وحينما تبصر حركة عامة
شاملة في البيوت جميعا ليلا ونهارا : من عجبن الخبز واعداد « كعك »
العيد ، ومن دخان متصاعد من فجوات الدار ومن فرنها ، ومن
عملية غسيل ، ثم تجفيف ونشر على أسطحه الدور ، الى عملية كنس
الحارات ، كل امرأة أمام دارها ، الى عملية « الحناء » وخروج كل
امرأة في الليل بيلاصها أو صفيحتها الى الترفة للاستعداد للاستحمام
والاغتسال !

وان تطلع الشمس من خدرها ومقصورتها صباح العيد حتي
تملاً عينك مناظر الاطفال والاولاد بجلايبهم الجراء والبيضاء ،

وبأيديهم المملوطة بالخناء ، وفي أيديهم قطع الحلوى أو « عفريت النسوان » أو لعب أخرى ، ثم تبصر جماعات الريفيين بجلاليهم البيضاء غالبا ، ويبلغهم الصفراء الجديدة ولبدنهم السوداء أو الحمراء حيناً ، يسرون مبتسمين فرحين مهنتين بعضهم بعضاً بالعيد السعيد المبارك ، الذي قلما يتلاقون ويتقابلون جميعاً الا في مثله متوجين الى المصلى والى المساجد حيث يقيمون هناك صلاة العيد ، وبعد ذلك الى مقابر الموتى حيث يرفعون لهم هناك أدعية الرحمة وينزلون عليهم غيث المغفرة والرضوان ، وحيث يتذاكرون المصير الاخير والنهاية القاسية المرة ، ويتذاكرون موتاهم الاعزاء وماذا خلفوا في حياتهم ، فيتخذون منهم ومن اجسادهم وعظامهم عبرة الحياة وعظة الموت ودرس « المصير »

وهناك تشاهد بين المقابر جماعات النساء بسلاهم وبأسباتهم مليئة بالسكك وبالنمر وبالحلوى لتوزع على جموع الاطفال والاولاد هناك « رحمة » على موتاهن وذكرى لعهودهم ووفاء لحقوقهم ، ويملاً سمعك أصوات عالية من جماعات « الفقهاء » يقرأون سورة « يس » الكريمة خاصة ، ثم يجازون على ذلك ببضع « كعكات » أو جانب من النمر

وأخيراً يعودون الى ديارهم ، يتزاورون ويهنتون بعضهم بعضاً رجالاً ونساء ، وفي العصر يخرج الرجال الى الخلاء والامكنة الفسيحة أو « الاجران » ، وهناك يلعبون « لعبة الخطب » وهي

كما قلنا المبارزة أو المضاربة بالعصى الغليظة ، أو يلعبون بالكرة
من الخرق البالية ، أو يقضون جانباً من الوقت في « الاراجيح »
المزدحمة ساحتها بالاطفال والفتيات والرجال

ومن المدهش أن ترى أحياناً في يوم العيد في الحقل كثيراً
من الفلاحين بجلايبهم الزرقاء يزاولون عملهم اليومي بجهد ونشاط
ولا يعطون جسومهم حقها من الراحة حتى في مثل هذا اليوم !

هذه هي صورة مختصرة جداً للعيد في الريف . وهي صورة
ساذجة بريئة كما نرى ، ولكن نلاحظ انه ينقصها روح « الحياة »
والشعور بالذات ، وهذه الظاهرة تكاد تكون عامة في مدننا وفي
ريفنا ، فلن نفهم من العيد إلا الملابس الجديدة الانيقة والا الطهي
الجيد والمأكولات الشهية ، أما العيد كيوم نلتقي فيه والطبيعة
العظيمة المحبوبة الجليلة في حدائقها وأزهارها وبحارها وأنهارها
أما العيد كيوم نحاول فيه الشعور بذواتنا وتغذية قلوبنا وأرواحنا
مما في هذا العالم الرحيب من نور ومن جمال ، ونطلق فيه نفوسنا
على سجاياها وطبائعها تنتقل على أفنان الحب وبين دوحات الجمال
لا وجلة ولا متوجسة شراً ولا خائفة رقبياً أو عاذلاً أو مواضعات
الناس .

أما العيد بهذا المعنى فبعيد عن بيئاتنا المصرية وعن تفكيرنا ،
وهكذا نخلق لأنفسنا بأفئسنا مواضع الوحشة وغياهب الظلام
وقيود الأسر !

قلنا قبل الآن أن الفلاح المصرى — رغما من بساطة حياة
 اللهو لديه — فهو لا يزاو لها الا ندورا ، فلسنا نعرف رجلا مشغولا
 عن العالم وعن لهوه ولذاته منعزلا قابعا في داره ، محتقرا للحياة أو
 لمعناها بمعنى أصح مثل فلاحنا المصرى ، فهو لا يقدر لنفسه وجودا
 ذاتيا ولا يدرك معنى الشعور بالحياة ، ولا يعرف ان هذه الحياة ملك
 لنا وحدنا ، نستمتع بها كيف نشاء وأي نريد وحيث نرغب ، أو
 ليست هذه الضروب من اللهو الا نوعا من العزاء والسلوى عما
 نلاقه في هذه الحياة من عنت ومن شقاء ؟ فليس من مصاب الا
 قدر الله له السلوى وليس من داء الا أوجد له الله الدواء ! وألا
 فكيف تكون هذه الحياة التى نحياها اذا كانت خلوا من السلوى
 وفيها ما فيها من نقص وبلاء ؟ والا فما فائدتنا من قلوبنا ومن آذاننا
 ومن عيوننا ، اذا لم تكن طرقا ومنافذ الى اللهو والى الاستمتاع بكل
 ما في الوجود قبل أن يغلقها الردم ويسدها ثرى الرمس ويطويها
 ظلام اللحد ؟ وماذا كان يكون مصيرنا وحياتنا اذا أريد منا أن
 نتحمل الألم وحده ثم نحرم اللذة ؟ وماذا كان يكون حالنا لو
 احتبست الآلام بين أطواء قلوبنا فلم تجد لها مخرجا الى العزاء أو
 ممتفقا عن الشقاء ؟ كان أن تنفجر قلوبنا لتلفظ منها آلامها ،
 وتندك جسومنا لتطرد عنها همومها ، كان يكون الفناء والدمار والبوار !
 ثم ما الموت ؟ أليس هو حرمان القلب أن يحب ، والعين أن ترى ،
 والنفس أن تتذوق لذات الحياة ، والروح أن تحوم في معابد الجمال

وأما كن القداسة ؟ وإذا . كنا لانتذوق لذات الحياة ونستمتع بلهوها
وعبثها الآن ، فمتي تتاح لنا الفرصة لنلتذ ولنلهو ونعبث ؟ أفي الرمس
وقد اندثرت قلوبنا تحت أحجاره ، وبلي جسمنا تحت انقاضه .
وتبددت عظامنا بين جوانبه ، وتبعثرت آمالنا وأحلامنا ورغباتنا
وشهواتنا هواء في ظلام وضلال تراه ؟



الفصل الثالث

فلاحنا

« حياته ونفسيته »

قد يكون الفلاح في أمم أخرى أشقى من فلاحنا حالا ، وأتعس منه عيشا ، وأكثر منه شكوى ، وأرفع منه أنينا ، وأحر منه دموعا وأشد منه لوعة وأسى ، على حياة كلها جذب وفقر وبؤس وبلاء ، وجور واعتساف وضغط وحرمان ، ولكن فلاحنا المصري يخيل لي أنه يكاد يكون أتعس فلاح في العالم اذا قيست أمته بالأمم الأخرى وروعى التناسب في حالات الحضارة والمدنية والنهوض ، واقدر نكون خطونا حقا خطوات واسعات موفقات مكالات بالفوز والنجاح في نواح كثيرة من نواحي النشاط الاجتماعي والانتاج القومي والسعي الاصلاحى ، ولقد نكون بلغنا في نهضتنا القومية الكبرى حقا شوطا مظفرا منتجا محمودا جعل اسم « مصر » يتردد ويعلو ويذكر في الساحات الدولية والهيئات العالمية ، كأمة لها من ماضيها الخالد ومجدها التالد وحضارتها الاولى بين حضارات العالم قاطبة ، ومن حاضرها الفاخر وبعثها الأ كبر

واحياؤها الشامل وجهادها المشكور الحي ، ومن آمالها في المستقبل
الزاهر الجدير بماضيها العظيم وبتاريخها القديم ، الخلق بحيوات
الشعوب الجديدة والأمم الناهضة الحية الشاعرة بوجودها وبكرامتها
وبجرياتها وذاتيتها ، كأمة لها من ماضيها وحاضرها ومستقبلها
ما يهيئ لها أن تكون أمة الحكمة والحضارة والقوة والعظمة والخصب :
أمة « السر » المستكن في جدران الاهرام ، المغيب في رأس أبي
الهول ورمال الصحراء العظمى !

أقول قد نكون قد خطونا هذه الخطوات الواسعة المشكورة
في جهادنا القومي وفي نهضتنا الكبرى ، وقد نكون حققنا جانباً
من مثلنا العليا ونهضتنا ببعض من أسس الإصلاح ودعامات الانتاج ،
ولكن بكل أسف وبكل خجل يندي جبيننا ويوصم فخارنا القومي
وكبرياءنا المصري ، أقول بكل أسف أننا ابقينا فلاحنا المصري
حيث أبقاه الماضي السحيق العريق في القدم ، حيث أبقته العصور
المظلمة السوداء وصنوف الحكم التي تقلبت عليه من رومان ومن
عرب ومن فرس ومن ممالك ، وارتضينا له المنزلة التي اختارها له
قيصرة الرومان ودهاقنة الفرس وحكام العرب وسلاطين آل عثمان ،
في عصور الجبروت وعمود التعسف ودول الاستبداد !

فلقد نهجنا في حياتنا الخاصة والعامة الداخلية والخارجية منهج
الغريبيين ، وغيرنا في أساليبنا التفكيرية وفي مناهج بحثنا وألوان
كتابتنا وطرق حديثنا وفي معاملتنا الخاصة وفي حياتنا المعيشية ،

وفي وجهات نظرنا المختلفة الى الحياة والى العالم والى الانسانية
جميعا، وغدونا نرفض اليوم ما كنا نطمح اليه بالأمس ونأمل
في حياة جديدة وفي عصر جديد خليق بتفكيرنا وطموحنا ورقينا
ونهوؤنا، بماضينا وبحاضرنا وبمستقبلنا أيضا، وأصبحت لنا مثل
عليا تختلف عن اخواتها في الماضي باختلاف العصور وباختلاف
الاستعداد، وأصبحت لنا حريات مقدسة اكتسبناها بدماء شبابنا
وبحكمة شيوخنا، وسورناها بمهجنا وأرواحنا وقلوبنا، وأنزلناها
منا منزلة الدم في عروقنا والروح لجسمنا، وغدونا نستمتع بعض
الاستمتاع بحريتنا التفكيرية المقدسة السامية !!

ولكن ! ولا بد لنا في هذا المقام من (ولكن) ! ولكنا
تركنا ريفنا وفلاحنا، تركنا هذه الناحية الكبرى من حياتنا في
خمودها وفي رقادها بين رمال الماضي يأتي على نشاطها وعلى حياتها،
تركناها ليد الزمن تعبت بها كيف تشاء وانى تشاء، تركنا
الفلاح المصري فخر مصر وسيدها في جهله وفي حرمانه من الاستمتاع
بالوجود والشعور بالحياة، وفي ألوان استبداده وصنوف تعسفه يعاني
من كل هذا جميعا شر ما يعانيه انسان تألب عليه الوجود كله
وحرمه حقوق الانسان !! وانه ليخيل لي أن العلة الأولى من
تعس فلاحنا، لا ! في سبب تأخرنا كشعب وكأمة عن الأمم
الاخرى وفي سبب الحياة التي نحياها الآن والتي نذوق مرارتها
ونتجرع غصبا واكراها صابها وعلقمها، انما هي « الجهل »

أنما هي هذا الظلام الذي يشمل كل وجودنا وينشر من فوقه ومن تحته ومن يمينه ومن يساره طبقات بعضها فوق بعض فلا نبصر شيئاً ولا نشعر بشيء ، أنما هي هذه القيود والأغلال والأصفاد التي في أيدينا وفي أرجلنا وفي أعناقنا فلا نتحرك الا في أبعاد مخصوصة وفي أوقات معينة وتعاليم محدودة .

هذه العلة هي مصيبة مصائبنا ، ونكبة نكباتنا ، هي السر فيما نحن فيه الآن وفيما نتحمل من ذل الاستعباد ونير الاضطهاد ومرارة الفاقة والحاجة ومسكنة الضعف ، هي التي تقفنا الآن مكبلين بقيودنا مكمنين بكلماتنا ، أذلاء خائعين أمام من يتحكم فينا ويستبد بنا . ويسوقنا الى ما يريد ، هي التي تجعلنا الآن عائلة على العالم جميعاً حتى في بصيص النور الشائع للامم قاطبة ، فلا نزال وسوف نبقي طويلاً في حاجة الى الغرب ننهل من موارده العلمية ونتهافت تهافت الفراش على مدارسه وعلى جامعاته نحصل فيها ما نعجز عن أن نحصله في معاهدنا وفي جامعتنا ، والى أن ينقطع هذا السيل الجارف ، والى ان نستغنى عن هذا الاستجداء ، فسنبقي عبيداً للغرب وللمستعمر وان منحنا واستردت الينا حرياتنا وحقوقنا المسلوقة المغصوبة ، والى ان تأخذ حياتنا التعليمية كلها الصبغة « المصرية » والطابع القومي الأقليمي فسنخزي رءوسنا ذلة وخضوعاً كلما ذكر لنا اسم « الغرب » أو الحضارة الأوروبية ! واليوم الذي يعترف فيه كل مصري من هذا « النور » الزاهي الشائع : والذي يتألم فيه العلم عندنا ويتخذ صبغة

القومية ، في هذا اليوم نشعر حقاً ونؤمن حقاً بأننا أمة محترمة مهية لها مجد ولها فخر ولها طابع خاص ، ونؤمن بأن لنا مقاما عالميا وصبغة دولية يحسب حسابهما في الهيئات الدولية وفي الجهات العالمية وبين الشعوب المحترمة !

لشد ما يستدرجنى فلاحنا المسكين ! حرمة الحكومات المتعاقبة التي لا تغنى الا بأبتهائها وبعظمتها وبجهاها وبكراسيها ، وحرمة الاغنياء القابضون على أموالهم بأيديهم من فولاذ ومن صلب ، وحرمة العصور الماضية السوداء ، عصور الحكم الاستبدادي في عهد الممالك والأتراك ومن اليهم من مستعمرين ومن مستبدين ، كل هؤلاء جميعا تألبوا عليه وحرموه حقه من النور الشائع الذي وهبه الله للعالم جميعا ، للانسان الذي خلقه فسواه وفضله على الخلق قاطبة ، حرموه هذا الحق المباح واتخذوا من انفسهم آلهة له يتصرفون فيه وبه كيف يشاءون وحيث يريدون ، يعطونه حين ترى ارادتهم العليا أن تعطى ، ويحرّمونه حين تشاء هذه الارادات أن تحرم !! وسنحاول منذ الآن في السطور التالية تصوير حياة هذا الفلاح تصويرا جهد المستطاع ، ان لم يكن صادقا كله فلا شك أن فيه ناحية كبيرة من الصدق وجانبا عظيما من الحق ، وسنكون في هذا التصوير على خير وأضبط وأدق ما تقضيه الأمانة علينا ، ونستمد هذه الألوان لتصويرنا مما شاهدناه ونشاهده لا مما سمعناه أو نقلناه حتي نرضي ضميرنا والحق وحدهما !

يسكن فلاحنا في دار صغيرة من الطوب الاخضر التي غالبا
حيث لا يمر عليها شتاء غزير حتى تتشقق جدرانها وتتصدع أركانها
وتميل جوانبها ، وسقف هذه الدار أو هذا الكوخ من القش أو
من البوص في الغالب . ولذلك فهو مهدد في داره بالموت من جراء
هذا التهدم والتصدع وهذا الأساس الواهي الضعيف للبناء ،
وأولاده أيضا مهددون بالسقوط من عل في أي وقت ، وجميع
أفراد العائلة مهددون في فصل الشتاء بوابل المطر حيث ترى فسحة
الدار كأنها مجمع أوحال أو كأنها بحيرة ، فلما وسط الدار وفي
داخل الغرف أحيانا ويتساقط مدرارا من السقف بل ومن كل مكان ،
ويلجأ المساكين الى الافران يصطلون ويستدفئون والسقف واكف
والسما ممطرة والطبيعة غضبي والوجود ثائر

ودار الفلاح تتكون من حجرتين أو من حجرة واحدة أو
من ثلاثة على الأكثر اذا كان عدد افراد العائلة كبيرا أو عدد
المواشي كثيرا ، وأحيانا تضيق به رحبات الدار ، وفي هذه الحال
تجده لا يرى مضاضة في أن يتخذ مضجعه هو وزوجه وأولاده بجوار
مواشيه وحيره ، وقد يدفعه ويأجته أيضا الى الاضطجاع بجوار
مواشيه خوفا عليها من السرقة ، فلا يستريح ويهنا حتى ينام بجانبها
وتحت أرجلها أحيانا وذلك لأنه مهدد دائما من خصومه بالسرقة .
وهذه الدار للفلاح المصري فخر مضر وسيدها تبنى على أحط
قواعد الصحة فكأنه ليس تمت من حكومة تشرف على صحة

أبنائها ، فلا عهد ولا وفاء ولا رقابة ولا عناية بهذا الانسان المسكين الذي يحمل هذا الاسم الكريم وليس له من مفهومه أو دلالة قليل ولا كثير ، ففي بعض الدور تكاد لا تجد نوافذ للدار وان وجدت فهي من الضيق بحيث لا ينفذ منها جانب كبير من الهواء الطلق الذي يصرف ما في الدار من عطن ومن هواء فاسد ومن رائحة كريهة ، وارتفاع الجدران واطىء جدا وكذلك سعة الحجرات ، ثم من المؤلم بل من المخجل بل من المبكى أن نومه وأكله ومتاعه وفرنه واستحمامه يكاد يكون أحيانا في حجرة واحدة ، فترى الرجل ينام بجوار زوجته ، وبجوارهما أولادهم ، وقد يكونون أحيانا في سن كبيرة ، وإذا كان الصيف تغطي معظم اسطحة الدور في القرية بالنائمين وبالنائمات على القش أو الحطب ، أما ماؤه الذي يشرب منه فحسبك منه الماء الراكد في الترع القذرة المليئة أحيانا بجيف الخير والكلاب والققط وما إليها ، بل لست أجد غضاضة في القول بل ولا مبالغة وغلوا اذا قلت أن مواضع شربه أحيانا هي نفس مواضع شرب مواشيه ، وقد تكون مواضع تبوله في بعض الاوقات وفي بعض الأماكن وذلك دون أن يشعر او يعرف ، يلجئني الى تقرير هذه الحقيقة وهذا اللون من الوصف ومن التصوير حرصي على أن أصور ريفنا وفلاحنا كما نشاهده وكما نعرفه حتي يتشخص لنا الداء ليسهل علينا بعد ذلك الدواء ، وحتى يعرف من لا يعرف فلاحنا المصري أن هذا الفلاح غريب كل الغربة عن الحياة الانسانية

المحترمة الموفورة وعن الحقوق المباحة الموهوبة الممنوحة له من خالقه ،
وهذا الواجب الذي أخذته على عاتقي والذي اضطلعت بحمله هو
الذي يضطرنني ويدفعني الى أن أكون أميناً في التصوير وأن أغضب
هذا اللون من التصوير بعض المكابرين الذين لا يريدون أن تصور
عيوبنا وحالاتنا الحقيقية ونقائصها ركوباً للرأس وتعلقاً بالغرور
الكاذب والانفة الجوفاء ، ولقد حان الحين بأن نتدرع بالصراحة
وبالشجاعة في الرأي وفي القول وفي التفكير في كل عمل من أعمالنا
وفي كل ناحية من حياتنا ، تاركين الجبن والخوف لمن لا يعرف
لنفسه قدرها ولا يحترم عقله ولا يعز وجوده ، تاركين للمزور
وللغضب والمكابرة ان يركب رأسه وان يسلك أي مسلك يشاء ،
فلن نؤثر سخطه على رضا الضمير ، ولن نلغي عقولنا ونخون الحق
ارضاء لأنفة كاذبة ولمكابرة باطلة هذه الحياة النكداء الوبيئة المهمة
القدرة هي السر أو هي العلة في تفشي الامراض بين فلاحنا المسكين ،
وقدما قالوا : ان الوقاية خير من العلاج ، فاذا كان كذلك ففلاحنا
أو أولو أمره هم المسئولون الى حد ما عن كثرة هذه الأمراض التي
تفتك بصحته بل باليد العاملة النشطة المنتجة في هذا البلد ، ففضلاً عن
عدم قدرته أو عن عدم رضائه في أوقات كثيرة للتطبب وللعلاج فانه
لا يعرف بل يستهين ويحتقر الوقاية وصنوفها ، وعلة ذلك كما قلنا
قبل الآن هي جهله وعدم عناية أحد به ، وحسبك بأمراضه الكثيرة
هذا العدد العديد من العميان في القرى ، ومن الذين تهددهم صنوف

الحمى المختلفة والملاريا والتيفوس والزلال والبلهارسيا والانكاستوما،
وهذان الأخيران لا يكادان يفارقان أحدا في ريفنا بمقدار يختلف
قلة وكثرة وقوة وضعفا .

وهو اذا مرض ألقاه أهله في الدار أو في القاعة ثم يجتمعون
حواليه ويضايقونه بكثرة أنفاسهم وشدة لجبهم، ويعطونه كل أنواع
الطعام الميسر لهم خوفا من أن يحرم لذة هذا الطعام فيدعو عليهم
ويغضب منهم .

هذا ولو اشتد به المرض وثقل عليه، فكثيرا منهم لا يفكرون
في طبيب يعالجه أو على الأقل يقول كلمة الطب فيه، فالطبيب كما
لاحظت هو أعدى أعداء فلاحنا، والطب عنده يكاد يكون أمراً نكراً،
وغاية سعيهم وجهدهم أن يكأوا أمره الى قدر الله المحتوم (وهو وبخته)
وهذا الاعتقاد الأعمى البالغ أقصى حدود العمياء، والجهل
بمعنى القضاء والقدر يكاد يكون علة مرضنا الاجتماعي وانحطاطنا
المجموعي، وخصوصا عند فلاحنا

فاذا سأله : ما بالك لا تفعل هذا ؟ يبادرك بالجواب : « اللي
مكتوب عاجبين حايكون » ، فكأنهم يريدون من القدرة العليا
المقدسة ان تحل لهم وتربط كل شيء وأن تقدم لهم كل مرافق حياتهم
وهم جانسون ناعمون فارغون على مصاطبهم وفي ساحات قاعاتهم
وعلى جوانب ترعهم وفي حقولهم ! .

هذه « الاتكالية » العمياء التي ليست من الدين الحق في

شيء ، ولا من العلم في شيء ، تكاد تكون سر انحطاطنا الى الآن ،
والعلة الاولى في تأخرنا في كل نواحي الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ،
في تأخرنا عن الأمم التي تعدو وتجري ونحن لا زلنا وراءها نزحف
ونحبو ، يعتقد الفلاح والجاهل والذي لا يعرف لدينه حرمة ولا
لعقله منزلة انهم غير مجبرين على العمل وراء أرزاقهم ووراء رفاهتهم ،
ويعتقدون أن الله قد قضى فيهم قضاءه يوم ظهروا الى هذا الوجود
بل قبل ان يظهروا ، فمن العبث واطاعة الوقت ومجاهدة المستحيل ،
بل من الخروج على الدين وعلى صاحبه أن يعملوا في الحياة بما يوسع
لهم من الرزق وبأن يغيروا هم وجهات حياتهم بأنفسهم بحسب أعمالهم
وبقدر جهودهم

قال الله تعالى في كتابه الكريم : « ان الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم » وقال أيضا : « وأن ليس للإنسان الا ما سعى
وان سعيه سوف يرى » . فترى هنا ان الانسان مسئول عن عمله
وانه بنفسه يوجه نفسه بل ويكيف نفسه

نعم ! كل شيء في الوجود وفي الكون وكل ما على الارض
وما تحت السماء وما في جوف البحار يذعن لأمر الله ولا يحدث
ولا يتغير الا بإرادته تعالى ، ولكن هذا لا ينافي مطلقا ولا يتناقض
ونظرية السعي والعمل والكفاح في هذه الحياة التي نحيهاها ،
لا يتناقض وقول صاحبنا « نيتشه » رسول الكفاح والقوة « لا أوصيكم
بالسلم بل بالنصر ، فليكن كل عملكم كفاحا ، وليكن كل سلمكم

نصرأ « أما علاقة تقدير الارزاق بالسعي وبالعمل فليس لنا أن
نبحث فيها لأنها ليست من اختصاصنا كما يقول رجال القانون
وعلمها عند ربى ، وكل ما فى أيدينا وما فى وسعنا وما يجب علينا ،
أن نعمل وان نكد وان نكافح فى سبيل العيش والحياة دون أن
ننظر الى أى اعتبارات أخرى ،

والله تعالى أرأف بعبده الانسان من أن يخلقه فى هذه الحياة
آلة أو لعبة لا يسأله عن عمله كالتقاصر أو كالمعتوه ، بل منحه ما يوسع
حدود ذاتيته وما يعلي به كرامته ، وما يسأل به عن كل أعماله ويحاسب
عليها حسابا عسيرا ، وهو لا يحاسب هذا الحساب العسير الا لأنه
ترك له بأن يوجه حياته وأعماله كيف يشاء وحيث يريد

وكل هذا يتفق كما نرى وأبسط قواعد المنطق ، ويتفق اتفاقا
تاماً مع المكانة المحترمة العليا المقدسة ومع الغاية التي ارادها الله
صاحب الأديان جميعاً لدينه القويم السامي ، اما خلط العامة والجهال
ومن فى عدادهم هذه « الاتكالية » العمياء بالدين ، فليس هو الا
أثر ومظهر قصور عقولهم عن الفهم وعجزهم عن تحمل آلام التفكير ،
فتمحكوا بالدين شأنهم فى كل شىء يجهلونه ولا يحبون أن يفكروا فيه ،
واليوم الذي لا نخلط فيه بين الدين وبين أى ظاهرة فى الحياة ونحدد
للدين حدوده انى ارادها الله له ، واليوم الذي نهز فيه بعقولنا
ونحترم تفكيرنا ونرى كل شىء فى الوجود قد وضعه الله تحت
أشعة العقل وتشريح التفكير احتراماً للعقل ميزة الانسان الكريم ،

في هذا اليوم يبدأ شعورنا بوجودنا ، ونبدأ في خطواتنا الاولى في السعي وراء الحق والكمال !!!

وقد تعجب أحيانا لمعالجة فلاحينا أمراضهم بأنفسهم فيفعلون ما تنقز منه النفس وتقشعر ، فماذا تقول في السكى بالنار المحرقة على الأبدان الحية وعلى الاجسام النضرة الطرية ، ماذا تقول فيما يسمونه « الخزم » هذه العملية القاسية التي يعالجون بها الحيوان والماشية ، ثم لا يأنفون أن يعالجوا بها الانسان أيضا ، وهذه العملية « الخزمية » هي خياطة الجسم بالأبرة أو « بالمسلة » والجسم حي لا مخدر ويعالجون بها معظم الامراض كرمد العيون وما اليه ، ويكاد كثير منهم لا يثق بطبيب لأنه في رأيهم مشعوذ ، ولا أنهم يسيئون الظن بكل منتجات العلوم ولا يرونها الا بدعة أتت بها المدنية المتحذقة ، ولأن الانسان لديهم ليس اشرف من الحيوان الذي يلزمهم ويعاشرهم ويناومهم أحيانا !

تكلّمنا قبل الآن عن دار الفلاح في الغالب ورأينا كيف يعيش هذا المسكين هذه العيشة النكداء في عصر نقول أنه عصر النور والعرفان ، ولكننا لم نتعرض للدار من الداخل أو أن تعرضنا لها فلم نعرض لها الا للمأما ولم نمر بها الا كراما !

اذا دخلت دار فلاحنا واحبت ان تتفقد معيشته وتعرف كيف يعيش لا تجد لديه سوى جانبا قليلا من الأذرة والشعير او القمح ان كن واسع المعيشة قليلا ، وهو يشتري حاجاته المعيشية

يلبيح جزء مما عنده من غلال أو برسيم أو فول اذا عزت عليه الفلوس
وكثيراً ما تعزبل وتندر !

أما قوته الذي يعيش عليه معظم الأيام فلا يزيد عن البصل
والمش والجبنه والجرجير والعسل الأسود وصنوف الخلل ، أما
البيض فيبيعه في الغالب ويضن على نفسه بأكله حرصاً على تحصيل
والاكتساب فلوس منه ولا يزال الآن في القرى من يضىء « المسرجة »
بالزيت بدلا من الغاز ، حرصاً على الاقتصاد في المعيشة الباذخة أقصى
مراتب الضيق ، أما البط والفراخ والأوز فكثيراً ما يبيعها وقليل
ما يأكلها ، فاذا جاء يوم « السوق » وهو يوم محترم مذكور
أبصرت النساء على الحير وأمامهن بطة أو فرخة أو ديك ثم يعدن
بالسكر والشاي وما اليهما

وتتضح لك حالة فلاحنا المسكين الماديه جلية يئنة ، وأنت
تتعرف شعوره النفسى والابتسامة الوادعة التي تمر على شفثيه حينما
تدخل عليه في داره فيسرع اليك ببشاشة وطلاقة ، ويقدم اليك
أجمل ما عنده من حطام وأثاث : حصيرة تظهر عليها الجدة ! مسكين
فلاحنا ! أقل شيء يفرحه لأنه فقير ولأنه تعس !

ومع هذا الفقر المدقع وهذه الحياة الضيقة التي كلها يؤس
ونكد وحرمان ، مع كل هذا فإن كثيراً من فلاحينا ، من هذا
الجيش العامل المنتج ، يتعاطى المكيفات وأكثرها انتشاراً بينهم
هو الدخان والشاي والأفيون والحشيش ، بعيدين عن عيون

الحكام وعن رقابة رجال الضبط والمباحث ، مسكين أيها الفلاح !

كل المصائب ألب عليك ، وكل البؤوس حليفة لك !!

ومن المدهش والعجيب ان كثيراً منهم يؤثر أن يشرب الشاي أو يتعاطى الدخان أو الحشيش على أكله وأكل أولاده المساكين ، ولقد تراه عريانا وترى زوجته وأولاده يشكون مرارة الفاقة وذل العري ، ومع ذلك لا يحرم نفسه أو مزاجه تعاطي هذه المكيفات ، متجاهلاً كل هذه المصائب الذي لا تنزل فرادى كما يقول « شكسبير » بل زرافات وجموعاً !!

أما عن جهل فلاحنا فهو طامته الكبرى وهو مصيبة مصائبه والعلة الأولى في كل ما يعاني من ذل وحرمان وتعسف وارهاق ، بسيط في علمه الى أبلغ حدود البساطة الفكرية ، ولا يكاد يعرف شيئاً ما عن هذا الوجود وذلك العالم ولا يفرق كثيراً بينه كإنسان له وجود خاص وذاتية خاصة وبين الكون الذي يكمنه ويحيط به ، فهو في هذه الحال الشعورية كالطفل يحسب نفسه والكون والعالم شيئاً واحداً فالنفس هي الكون وهي العالم ، وحواسه تكاد تكون معطلة كل التعطيل ، وذلك لأن عصور الاستبداد التي مرت بفلاحنا ، ولأن تلك القوانين الجائرة وهذا النظام الجائر الفاسد الذي يسير عليه الفلاح مكرهاً مرغماً ، كل هذه العوامل جميعاً حرمته كل حق يمكن أن يستمتع به كإنسان له وجود وله كرامة ، وكلفته بكل الواجبات الجسيمة التي تقوم عليها مرافق حياتنا وعماد ثرواتنا.

ثم عطلت حواسه حتى صداً عقله وزال من عينيه — أو كاد —
 بريق النور والحياة والشعور ، وخلقت منه كل هذه العوامل انساناً
 ساذجاً بسيطاً ، لا يعرف شيئاً في هذه الحياة الا التسليم الاعمى
 للقضاء والقدر ، والا الخضوع المشين المزري لرؤسائه وحكامه
 فأصبح يحني رأسه لكل رئيس ويستذل لكل سيد ، ويخضع
 خضوعاً فاضحاً لكل ظلم يقع عليه ، حتي كاد يتساوى لديه الظلم
 والعدل ، والحق والباطل ، بل النور والظلام !

وهذا الخضوع المشين للظلم وللجبروت ، وهذا فقدان للشعور
 بالنفس ، وهذا الاستخذاء والذل وبيع الكرامة والجهن والخوف
 والرهبة ، كل هذا جميعاً أفقده ارادته وسلبه كرامته ، حتي غرست
 في نفسه المذلة والهوان والضعفة ، فأصبح لا يشعر بكرامة تهان
 ولا بعزة تجرح ولا بشرف يثلب ولا بحق يضيع ولا بحرمة
 تنتهك .

والشعور هو كل شيء في هذا الوجود ، وأكثرتنا شعوراً
 وأدقنا حساسة هو اشدنا تبجيلاً وتوقيراً ، وأصبحنا فهماً للحياة ولما
 فيها من حسنات وعيوب ، وأكثرتنا أيضاً تعرضاً لآلامها ومصائبها ،
 وأن كان « ديكارت » قد قال « أنا أفكر إذن فأنا موجود ، فلقد
 عارضه جوستاف لوبون » بقوله « أنا أشعر ، إذن فأنا موجود »
 فتلك المصائب العديدة التي تنزل بفلاحنا ، وتلك العوامل
 كلها في بؤسه وفي تعسه لم تكتف بان حرمة نور العلم ، ولا بان

وضعته هذا الوضع الجائر القاسى ، بل حرمة أيضا أن يشعر ، بل
افسدت عليه قلبه وضميره وشعوره ، وتلك هي نكبة النكبات ،
وتلك هي مصيبة مصائبنا حين نملك قلوبا وحين يكون لنا ضمائر ،
وحين يكون لنا أعصاب وحواس وعواطف ، ثم نرى تلك القلوب
مغلقة معطلة في حكم الميتة ، وتلك الضمائر وهذه الأعصاب والحواس
والعواطف مهملات فاسدة ، وهذا الذي يعتدي على قلوبنا وعلى ضمائرنا ،
والذي يفسد علينا مشاعرنا ، هو أكثر اجراما وأشد خطراً من
هذا الذي يعتدي على جسامنا وابداننا بالضرب أو بالتعذيب أو
بالحبس أو ما إليها جميعاً !

كل هذه العوامل جميعاً كما قلنا ساعدت على فقدان فلاحنا
شعوره بنفسه وبكرامته وبحقوقه وربّت فيه الجبن والخضوع
والاستخذاء ، وجعلته يقبل يد ظالمه كما يلحس الخروف بلسانه اليد
التي تمتد لتريق دماءه ، فأصبح لا يعرف إلا رئيسه والعمدة
والبيك المأمور وجناب معاون وحضرة المحضر والباشا المدير
كما ينعتهم .

والحكام والرؤساء وأولو الأمر يستغلون فيه هذا الجهل
وهذه البساطة وهذا فقدان الشعور وهذا السكوت الكريم والرضاء
الجميل للذل وللهون ، فينزلون به كل ضروب الارهاق والظلم التي
ترضي قسوتهم وتغذي اطماعهم ، ويسنون له ما يشاءون من قوانين
المذلة والمهانة وهو بعيد كل البعد عن وضعها سواء بالطرق المباشرة

أو غير المباشرة ، فالمالك يمتص دمه ويهدده كل عام بالحجز على غلاله ومواشيه ومحصوله أو متاع داره اذا خانه الحظ — وليس له في تصارييف القدر وتوجيهات الحظ يد ولا أمر — وساء محصوله أو هبط سعر القطن ، والحكومة تفرض عليه الضرائب العديدة كضريبة الخفر وضريبة الأطنان وضريبة مجالس المديریات ، ولقد يروءك هذا اذا علمت ان مجموع هذه الضرائب التي تفرض على الفلاح تقدر تقريبا بربع قيمة ما يدفعه من الايجار للمالك عن الفدان ، فبربك كم يحتمل هذا الفلاح المسكين كل هذا الجور والارهاق . اذا كان حتي مرور بعض الحكام ورحلاتهم ورياضتهم ونزهاتهم كل ذلك يجبي ويحصل من مجهود فلاحنا المسكين ! هذا الفلاح الذي يعد حتي العسكري أو الخفير في مرتبة البيك المأمور أو الباشا المدير كما يسميهم ، ولا زالت ذا كرتي تحفظ حكاية الفلاح مع الخديوي السابق ، حين خاطب هذا الفلاح الطيب الجاهل الساذج « افندينا » كما كانوا يسمونه وقال له : ربنا يرقيك ويجيبك عندنا مأمور ! وهذا الفلاح المسكين الذي يحسب أن هذا المأمور أو ذاك المدير خلفاء الله في أرضه لا يعصي لهما أمر ولا يرفض لهما طلب ، هذا الفلاح لم يتصور هؤلاء جميعاً هكذا ولم ينظر اليهم هذه النظرة التي كلها خوف وأرهاب وخشوع وتهيب ، الا لان جهله خيل اليه وأوهمه ان هؤلاء في مرتبة من الخلق أعلى من مرتبته أو من طينته غير طينته ، والا لأن يد الاستبداد والعصور السود التي مرت على

مصر في توارينها الطائفة بفضائع الجور وأنات البؤس ، وهؤلاء
الحكام الطاعة الذين افردت لهم اللغات في قواميسها ومعاجمها لفظة
« الدكتاتورية » والذين ابتلعوا أو استلبوا أرادات الأفراد
والمجاميع وقبضوها في يدهم التي يفخرون بأنهم من فولاذ وصلب
وحديد ، والذين يريدون أن يوجهوا أممهم ودولهم حسبما تشاء هذه
الارادة العليا وهذه اليد الحديدية ، هؤلاء المستبدون الجبابرة الاقزام
الذين يطعمون في أن يسحقوا ارادة الأمة وكلمة الشعب وصيحة
الحق ، لتعلو أرادتهم المقهورة وتنتصر يدهم المفلولة المشلولة ، هؤلاء
جميعا استغلوا كإفلقنا جهل هذا الفلاح المسكين فسلبوه ارادته وساووه
على شرفه وعلى أنفته وكرامته ، ثم فعلوا به ما أرادوا ، ثم جعلوه عبداً
يباع ويشترى بارادتهم ، ثم عاشوا وتنزهوا وتنعموا وتقامروا
وتغازلوا ، وقضوا حاجات قلوبهم ونفوسهم بما يقتطعون من لحمه
ويشربون من دمه ، ومن مجهود وعرق وشباب هذا الفلاح الشقي
بجهله أبلغ مراتب الشقاوة ، والمسكين التعس بحكامه وملاكه أقصى
منازل التعس !!

مسكين فلاحنا ! عليه كل الغرم وليس له من الغنم شيء ،
حرموه نعمة العلم وتركوه في حال ليست اشرف كثيراً من حال
حيوانه ، ثم استخدموا هذه الجهالة وهذا الفقران للشعور في تنفيذ
اغراضهم وقضاء شهواتهم حتى كاد يرزح بالحمل ويسقط صريعاً أو
يتخذ له طريقاً أخرى يتخلص بها مما هو فيه من حرمان ومن جهل

ومن ظلم ، واني لأكتب هذه السطور وبني من الخشية ومن الوجع
ومن الاضطراب للقول بأن حاله السيئة الحاضرة البالغة أقصى ما تتصور
من جهالة وشقاوة واستعباد في عصر سحقت فيه كل صنوف الاستعباد
والاستغلال ، أخشى ان تدفعه الفاقة والحاجة الى العدل والاصلاح
والى النور والحق ، الى ما انتهت اليه حركة الفلاح أو العامل في
بلاد أوربا حينما أنوا من الشكوى ورزحوا تحت أحمال البؤس والفاقة
والجهل والجور ، نعم ! أخشى ذلك اليوم كل الخشية وأخاف ان
تلجئه هذه الحال السيئة الى مالا نحب ولا تحب الحكومة وأولو
الأمر والاغنياء أن يكون !

وحبنا للسلام وللهدوء وللعدالة ، ووافؤنا لمصر ولفلاحها
وريفها ، وحرصنا على حياة الأمن والدعة والطمانينة ، كل ذلك
يدعونا الى الخشية والخوف من أن تضيع المباديء المتطرفة من
الشيوعية وأباسة البلشفية في بلد آمن وديع كمصر ، وبين ناس
يحرصون على الحياة المطمئنة الهادئة كأبناء مصر ، لاسيما أن المتطرفة
والبلاشفة وأنصار الهدم والتخريب يبذلون جهودهم في إدخال
مبادئهم وتعاليمهم وسمومهم الفتاكة بين أبناء هذا الوادي المبارك
الامين ، ونحن نخشى كل الخشية في صراحة وشجاعة واخلاص
أن تجد هذه النار الحامية في طريقها وقوداً تأكله ويزيدها اندلاعا
وتوهجا ، نخشى أن تجد لها في مصر وبين طبقة الفلاحين والعمال
ومن اليهم أرضاً رحبة تنبت فيها غرسها ونبتها ، وهذا الخوف وهذه

الخشية هما اللذان يدعواننا الى ان ننادى عالما ونناشد كل من يهمه
أمر الوطن وشئون ابنائه أن يعملوا جميعا على منع هذه النار التي
لا تبقي على شيء قبل وصولها أرض مصر ، وذلك بالعناية
بشئون الفلاح وبمخارجات العامل عناية تليق وما تطور اليه العالم
وما استحدثت على مصر الحديثه في عصر النور والحق والحريات
المقدسة ، والفلاح والعامل هما أكثر الطبقات في كل أمة العالم
وخصوصا في مصر استعدادا لقبول المباديء المتطرفة والدعوات
الهدامة ورسالة التخريب والبطش والفتك !

واذا نحن نادينا ونناشدنا أحدا فأنما ننادي ونناشد الحكومة
أولا ثم الاغنياء ثانيا ، لأن هؤلاء جميعا هم المسئولون حقاً عن شئون
الفلاح ومطالب العامل ، وكلا الطبقتين هما المنتجتان العاملتان حقاً
في حياة مصر الاقتصادية وثروتها الانتاجية !

قد حدثتك عن بعض المظالم والضرائب التي تنصب على رأس
فلاحنا سواء من المالك المستبد أو من رجال الحكومة ، ولقد أنسيت
ان اذكر تلك المحاضر العديدة التي يجبرها معاونون ضد هذا
الفلاح المسكين لانه لم يحسن انتقاء زرعه من دودة القطن وأيضا
عقوبات مخالفات الري ، وباليات هؤلاء المعاوين ورجال الزراعة
يخلصون لوظائفهم في مصلحة الفلاح فيتفقدون بانفسهم راجلين الخمول
والغيطان ايروا بعيونهم هم لا بعيون غيرهم ولا بأذان وألسنة الاشاعات
والاقاويل ، ايروا محصول القطن ويقدروه تقديرا حقاً قائماً على

المشاهدة الحسية ، ولكنهم يقدرونه ويا للأسف ويا للجسرة وهم جالسون على مكاتبهم الجميلة ويبن أوراقهم الرسمية المكدسة ، وأمامهم كوبات الليمون وفناجين القهوة ، وعلى رؤسهم وحواليهم المراوح الكهربائية تذهب عنهم هجير الحر ، ثم بعد ذلك يقولون ان لنا وزارة زراعة مصرية في حي من اجمل أحياء القاهرة وفيها مكاتب ودوواين ، وفيها موظفون ومفتشون ، ومعاونون ، ويوهموننا أنها وزارة الفلاح المصري ، وزارة الانتاج والثروة ، وزارة روح مصر وحياتها الاقتصادية ، ويوهموننا أنها تعمل حقاً لسعاد الفلاح ولسماع شكواه ولزيادة الانتاج وتجديد الصنوف النباتية الزراعية وتحسين التربة المصرية ، وادخال ما ينقص مصر من أنواع النبات وما يتفق وتربتها وجوها !!

يمر العام كله تقريباً ولا يرى الفلاح المصري رجال الزراعة بين الحقول والغيطان الاندورا ، ثم لا يلبث أن يسمع أن الجرائد نشرت تقريراً بل تقارير وزارة الزراعة لتقدير محصول القطن تقريراً يوهم أنه حق وايس فيه من الحق قليل ولا كثير ، تقدير قدر وكتب وحبر وجمع على المكاتب لابين الحقول ، وتحت المراوح لابين الفلاح !

نقول يا ليت رجال الزراعة يخلصون لوظائفهم في تقدير القطن كل عام وفي سماع أنات الفلاح كما يخلصون لها اخلاصاً كبيراً في كتابة المحاضر والمخالفات !!

ومن أعجب العجب أننا نعيش في عصر يقولون انه عصر الحريات المكفولة والديساتير المصونة والعدالة الانسانية ، ثم لانزال نرى بأعيننا الفلاح المصري يرسل عنوة وجبراً أو بقوة رجال الادارة والحكومة لحفظ مياه النيل ، فيذكرنا هذا بعصور السخرة وعهود الجبروت ، ومع ذلك أتحسب أن الحكومة تقوم بنفقاته بضعة الايام التي يقضيها المسكين ليقوم بهذه الرسالة ؟ ولكن الموظف الذي ينتدب ولو لأتفه المسائل تجود عليه الخزينة الغنية بالجنهيات وبالأوراق !

لقد كنا سمعنا قديماً أن الحكومة تفكر في أن تكلف مقاولين يقومون هم بحفظ مياه النيل عند الفيضان على نفقاتها فتبطل السخرة ويستريح الفلاح الذي لا يعرف الراحة حتي يستريح الراحة الكبرى ! فآين آثار هذا التفكير ؟ والآهل نقضي أعمارنا في بلد العجائب فلا نسمع عن مشروعات مستخرجة من معامل القول والخطب والوعد والتزويق ، حتي نسمع عن قبرها وموتها وهي جنين في مهدها ؟ هل نقضي أعمارنا كالأطفال تضحك منا الحكومة التي نقيمها علينا بجهودنا وبدمائنا وبشبابنا بمعسول الأمل وبكاذب القول وبمحاولة اللسان وأخيراً بروغان الثعلب ؟

يا رجال الحكومة أيا تكون حكومتكم ! كفى شفقة بالفلاح وحدباً عليه ! ارحموه من عدالتكم لأنها أكثر من طاقته وأثقل من جهده لأننا نخشى أن يفدحه الحمل وتبهظه الرحمة والعدالة فيقع

صريعاً مكدوداً ! من هذا الذي تنزلون به كل يوم من الارهاق
والجور ألوانا ، ومن الحرمان والاسترقاق صنوفا ؟ أليس هو ذلك
المسكين الذي يأكل خبزه من الحلبة والاذرة ، ويشرب الماء العطن
الراكد في المجاري وحول الجيف ، ويعيش على الزيت والمش
والبصل ؟ ان هذا المسكين بجهله هو الذي تأكلون وتلبسون من
غرس يده ، وتترضون وتغازلون وتراقصون من جيبه ومن عرقه ،
هو يزرع وانتم تحصدون ، ويسهر وتنامون ، ويشرب الماء كدرا
وتشربون المدام صافية والكأس مترعة متألقة ، ويموت بين
الجوع والعري وانتم بين الكأس وبنات الهوى ، أليس كذلك
يارجال العدالة والرحمة والانصاف ؟ ألا تعلمون بأن هذا المسكين
ما كان ليتحمل كل هذه الضروب من الاعتساف والحرمان وهذه
الحياة المظلمة النكداء ، لولا جهله الذي يدعه يصبر على الضيم
ويرضى بالهوان ؟ وهل تعلمون انه لو ينال قسطه من العلم ونصيبه
من النور والعرفان لأصبح يشعر بالظلم وبحس بالحال ، والشعور بالظلم
كما تعرفون — لا الظلم — هو أساس المطالبة بالحرية !!

يا ذوي الاملاك ويا أصحاب الطين ! ان اشرف مافي الحياة
العدالة ، وان ذلك الذي تنزلونه منكم منزلة العبد الأجير أو الآلة
المسيرة أو الحيوان المسوق ، ان صبر على الضيم طويلا ، وان قضت
ظروف العصور السود التي مرت به في عهود الماضي المنكود أن
تسكته عن طلب الاصلاح والعلاج لحاله

فانه الآن في تلك العصور المضيئة التي أتاحت لكل انسان أن يرى بعينه حتى يعرف كيف يمشي بقدميه ، في هذه العصور التي أوشكت فيها صروح الاستبداد والأسترقاق والأقطاعية أن تندك وتبتدد ، في هذه العصور التي خرجت بالانسانية من مجازر التعصب وعماية الجهالة ووحشية التعسف وأمر العبودية ، الى جلال التسامح واضواء العالم وسمو العدالة وفضاء الحرية ، في تلك العصور عصور تحرير الفرد من قيود الجماعات وارهاق الحكومات وارادات المستبدين الحاكمين بأمرهم ، عصور جعل الامة مصدر السلطات جميعاً ، عصور محاولة الانسانية الى أن تزيل الاحقاد والآخر والخصومات ، لتعيش في دعة وطمأنينة وسلام وأخاء وحب حتى تخرج خير ثمارها وخالد آثارها !

أقول في هذه العصور وفي هذا العصر الذي نعيش فيه ، من القسوة كل القسوة أن نطلب من الفلاح المصري الفلاح المصري الذي بقى الى الآن على ما كان عليه في عهود الممالك السود رغم وجود تلك الهوة السحيقة بين طبيعة كل من العصرين والعهدين وبين روح الجماعات واختلاف وجهات النظر الى الحياة في كل مرافقها ونواحيها ، من القسوة ان نطلب منه الا يشكو من هذه الحال وقد رأى نفسه عبداً لمالكه وآلة لحكامه وفقيراً بائساً في حياته ، فعالجوا الداء قبل أن يستفحل ويعز عليكم الدواء ولات مندمة ولا ليت ! وانى لأخشى أن بذور الاستنكار

المر والشكوي الحارة التي أصبحت تتجاوب في كل صدر وتموج
 في كل نفس وتجيئ لكل خاطر ، أخشى أن تجد هذه البذور لها
 أرضاً قابلة للنمو والازهار فيصعب اقتلاعها من جذورها أو القضاء
 عليها في حقها ، فإذا كنا أوفياء حقاً لهذا الوطن غيورين حقاً على
 مصالحه وراحة ابنائه ، عاملين حقاً على أن يعيشوا في طمأنينة
 وأمن وسلام وحب وعدالة وإخاء ومساواة ، فعلينا أن نعالج
 هذه البذور قبل أن تنبت وتزدهر وترعى ، وإن تقتل الجنين
 في بطن أمه قبل أن يظهر إلى الوجود ويتدرع بالمنعة والقوة !
 والخطوة الأولى في رأينا لأصلاح هذه الحال وعلاجها ولتضمد
 هذه الجراحات الدامية هي التعليم ، فعلموا الفلاح قبل كل شيء
 وقبل كل خطوة في الإصلاح أو عملية في البناء ، فإن جهله هو سبب
 شتموته وفقره وبؤسه واضطهاده وهو سبب شقاء مصر جميعاً ،
 وهذا الجهل — إذا كنتم تدكرون — هو دعامة السياسة الكرومرية
 وتسكأة الاجرام الدولوي ، نعم فإن أصحاب الجلايب الزرقاء كما
 كان يتغنى بذلك السيد كرومر عميد قصر الدوبارة ، هم الذين اتخذت
 منهم السياسة الاستعمارية وسائلها ووسائطها في البطش بالحرية
 وبالدستور ، وفي اتحاد جذوة الوطنية والحماس القومي ، وفي تغيير
 وجهات الجهاد ونزعات ومطالب المصريين ، وفي حصر كل الجهود
 والاعمال فيما يسمونه الجهاد الداخلي أو السياسة الداخلية ، هذه السياسة
 الكرومرية ، المزينية بمعسول القول ورخاوة اللين لم تجد لها مرعى

خصييا تنشب فيه اظفارها وتنبت فيه غرسها الا عند الفلاح ، الا عند أصحاب الجلايب الزرقاء الذين اتخذوا من جهلهم ومن سذاجتهم شبه دليل على انهم يرضون بحكمهم لا بل أكثر ! يفضلونه على الحكم المصرى والسياسة المصرية الوطنية !

فاذا علمنا أن أقدار الأمم جميعا ونصيبها من الحياة المحترمة الموفورة الكاملة ، وان اتجاهات هذه الحياة أنما تقاس وتوزن بقدر نصيبها من هذا النور الشائع ومن المعرفة والثقافة الانسانية ، فيكون فلاحنا أشقى صنوف الانسان جميعا اذا راعينا هذه الفروق الكبيرة بينه وبين الطبقات الغنية الارستقراطية المتحكمة في مصر ، واذا راعينا العصر الذي يعيش فيه وتلك العزلة أو هذا الوضع الذي وضعته فيه الاقدار أو وضعته فيه الحكومات ورجال المال والطين ، واذا راعينا ايضا طبيعة وروح هذا العصر الذي ينفر ويكره أي لون من ألوان الظلام والاعتساف والحرمان من الانسان لاختيه الانسان !

هذا ولا أحب أن أدع الآن حياة فلاحنا قبل أن أقول كلمة في ناحية هامة من نواحي حياته : تلك هي الناحية الاعتقادية وان كانت « بيسيكولوجية » أكثر منها « بيروجرافية » ، ولقد حدثتك قبل الآن عن اعتقاده المفرط في « الاتسكالية » ونسيت أن احدثك عن اعتقاده الكبير أيضا بالأولياء والصالحين المقربين ، ولست أجد عبارة أوفى وأجلى للمعنى وأوجز لتوضيح هذه الاعتقادية من أن اقول انه يكاد يقدم لهم فروض العبادة والتقدس ويرفع اليهم الصلاة ،

فليس يتصورهم ناسا مثلنا لهم مالنا وعليهم ما علينا ، وتقلبوا في كل
الاطوار « الجنينية » والبيولوجية مثل ما تقلبنا ، وإنما يقوده خياله
ويصور له تعصبه الاعتقادي ان هؤلاء السادة والاولياء ليسوا
بشرا ولا من طينة الانسان ، فويل لمن يصيب أحدهم بكلمة تؤذيه
في قبره وويل لمن يظنهم ناسا مثلنا لهم عينان وقدمان ويدان ،
وخلقوا من طين وعاشوا كما نعيش الآن على هذه الأرض التي
تشمل فوقها رواية الحياة والتي ستسدل عليها أيضا الستار لتبدأ قصة
الموت ، نعم ! ويل لمن يحسبهم يأكلون مثلنا وينامون ويشربون
ويحبون ويكرهون ويخافون ويحجلون وينسون ويذكرون ويأتون
أحيانا المنكر ويقضون حاجات نفوسهم مثل ما نأتى وما نقضي جميعا !
وإذا أراد أحدهم نجاح عمل له نذر لولي من الاولياء خروفا
أو بقرة أو عجلا أو جديا ، فإن نجاح هذا العمل ظن بل أيقن أن هذا
النجاح جاء به هذا الولي الكبير ، وإن خاب وفشل أيقن ان هذا
الولي مغضب عليه ناظم منه ، ولذلك فهو قد خيب مسعاه وأفشل
أمره ، وما عليه أزاء هذا الغضب وهذه النقمة الا أن يترضاه بكل
صنوف الترضي ، فينفق في سبيل ذلك من المال الذي قد تكون
داره وأولاده في أشد الحاجات اليه ، ولكن رضاء الاولياء عنده
فوق كل حاجة !

يدفعني التحدث عن هذه الناحية الاعتقادية في فلاحنا الى أن
أتحدث قليلا عن طبيعة عقيدته أو جوهر إيمانه ، ياخص هذا الايمان

فيما نسميه « أيمان العجائز » ويتميز هذا الصنف من الايمان بالاستسلام التام وبالسكوت المطلق عن كل تفكير أو توجه أو بحث في المسائل الاعتقادية، فما علينا الا أن نسير كما سار السلف وأن نعتقد كما اعتقدوا وأن نستسلم كما استسلموا، وأن نقبل كل شيء راضين مطمئنين قانعين بدون بحث أو تفكير أو اجتهاد أو أقناع أو جدل

ففلاننا إذن أبعد الناس عن التفكير في الألهيّات بل في كل المسائل الاعتقادية، ولذلك هو أشد الناس سخطا وغضبا على كل من يحاول أمامه في مسألة تحوم قريبا أو بعيداً حول الشؤون الدينية وليس له اذا سمع هذا الذي يتحدث في هذه الشؤون الا أن يرميه بالألحاد، والا ان يخرج من الجماعة الاسلامية، وكل هذا متفق مع طبيعة حياة الفلاح وعقائمه، فليس في استطاعة كل واحد أن يفهم الأديان ويتجادل فيها، ونحسب انه لن يهضمها ويتعرفها ويفهمها الا من أوتي حظاً كبيراً من الثقافة والعلم، فهؤلاء حقاً هم الذين يدرّكون ما نسميه بالفلسفة الدينية

وقد يكون هذا الضرب من الايمان (أيمان العجائز) أروح للنفس التي تحب الدعة وتجنح الى الهدوء والطمأنينة الى ما تعلم وتؤمن، وتكره البحث عما وراء العقل الانساني الغامض، وتخاف أن يذهب بها الشك بعيداً عن ضوء اليقين وساحة الأيمان فتعاني آلام التشريد وعذاب القلق، فما لها تفكر وتبحث مع الباحثين في طبيعة الآله وفي كنهه وقوته وفي كونه وملكوته وفي خلقه وعوالمه وفي ارادته

وحدودها وفي الأديان وتعددتها والرسل وتعاليمهم والأنبياء
ومذاهبهم ، وما لها تفكر في الوحي اذا كان صدقا أو غير
صدق ، أو في هذا الرسول أو هذا النبي اذا كان قد وجد أو لم يكن
موجوداً ، وما لها تبحث في كيف خلق العالم ومن أين جئنا ، أو
كيف يدبر الله الكون ويدبر أموره ، وكيف تسيره قوته وتوجهه
ارادته ، وما لها تجد نفسها في البحث والتفكير في البعث والمعاد ،
وفي اثواب والعقاب ، ما لها تكلف نفسها كل هذا وهي مؤمنة
متيقنة بآله واحد يدير هذا الكون الواسع ، مؤمنة بأنبيائه ورسله
جميعاً وباليوم الآخر ايماناً لا تحب أن تذهب فيه مذاهب التفكير
لأنها في غنى عنها ! وخوفاً من أن يضعف من ايمانها أو يذبذب يقينها
وما يرتجي هذا الفلاح في حياته إلا أن يحصل له ولاولاده الرزق
في حياته ، ثم يعمل لاخرته بما يجعلها آخرة محمودة ونهاية مشكورة
حتى يقابل ربه يوم المعاد بصحيفة بيضاء وبعمل مرضى ، ولاجل
العمل لهذه الآخرة يقوم بفروض الصلاة التي أمر الله بها متقرباً بها
الى الله لتشفع له عما يرتكب ويأثم في حياته ، وتكاد هذه
الفريضة أو هذا الصنف من المراسم التعبدية هو كل ما يعرفه ويفهمه
فلاحنا نحو الدين ، وأظننا نقسو كثيراً ونتطرف لو طلبنا منه أكثر
من ذلك ونحن نعلم في أي ظلمات الجهالة يعيش !!

هذا الاستسلام المطلق وهذه الطمأنينة الاعتقادية هما السبب
الاكبر فيما نغبط الفلاح المصري عليه من قناعة النفس ورضى

الضمير اللذين نجسهما بحق سعادة السعادات وتاج النعيم ، وسنعرف حين نتحدث عن نفسيته أن من أخص صفاته وخلقه القناعة ، وانها العامل الاكبر فيما نحسب له من نعيم وسعادة !

والآن نحب أن نتحدث عن خلق فلاحنا وعن نفسيته حديثاً لا نمقص منه ولا نزيد ، وأن نصورهما تصويراً يتفق والغرض الذي دفعنا الى كتابة هذه الاحاديث ثم اذاعتها بين الناس ، تصويراً لا ينحاي في ولا نكذب ، هو صورة ما نعتقد أنه حق ونؤمن بأنه صدق ، وحسبنا هذا الاعتقاد شافعاً فيما نخطئ من تصوير ، ولسنا نبغي من هذه الاحاديث المبنوثة في هذه الاوراق كما قلنا قبل الآن ، إلا أن نصل فلاحنا المصري بالبيئات المدنية في عصر اتصلت فيه الامم وتعارفت ، ولم يتصل فيه الفلاح المصري بالبيئات المدنية المصرية فضلاً عن البيئات العالمية فلا يزال يعيش في حقله وفي داره منفرداً بعيداً عن حياة المدن وحياة العالم جميعاً تجهله ويجهلها ، حتى أوشك هذا الفلاح المسكين أن يكون صنفاً آخر من الانسان الذي نعرفه ونفهمه ، ونستمتع بخصائصه وحقوقه وتعاريفه ، في عصر يجب الا يكون فيه إلا صنف واحد من الانسان كما أراد الله وكما شاءت اقوانين !

أول ما يخطر ببال من لا يعرف الفلاح المصري انه رجل متوحش همجي شرير ، سفاك للدماء جاف الطباع غليظ القلب منكر الخصال ، هذه الصورة الكاذبة القاسية التي تصور فلاحنا فيها

جانب كبير من القسوة ومن الظلم ، وذلك لان ابتعادنا عن فلاحنا
وعدم اختلاط كثير منا به ، وزهونا وكبرياءنا عليه ، وتفكيرنا
واعتمادنا بأنه من أصحاب الجلايل الزرقاء وحمة الفؤوس ، وبأنه
مخلوق لا يعنينا كثيراً بأن نبحت في حياته وفي خلقه وفي وجوه
اصلاحه ، كل هذا جعل تلك الصورة بعيدة عن الحق وعن العدالة ،
ومن الاسف حقاً بل من المخجل والمبكي معاً أن يأتي البعض فيقلل
من خطر هذا العمل الذي أخذت نفسي به ويصغر من شأن هذا
الوجه من وجوه الإصلاح المصري الذي أقدمت عليه ، وذلك
لأنني قصرت جهودي واتخذت نصيبي من العمل والبناء وزرعت
غرسى في أرض يحسبها ويراهها هذا البعض لا تجدر للزراع وللماء ،
ولست خليفة بأن نتعهدا بالاصلاح والحراث والري ، وفات هذا
البعض الظالم أنه من أكبر الوصمات التي تلحق بفخارنا القومي اذا
ما ذكرت كل أمة فخارها أن يبقى ريفنا وفلاحنا في القرن العشرين
وفي عصر النور والعرفان وتقرير الحريات ونصرة العدالة ، كما كانا
في عصور الجبروت وعهود السخرة والجهالة !

مسكين أيها الفلاح ! يظهر ان الأقدار لا يكفينا أن تعيش
وتحمي هذه الحياة النكداء البئسة وتحرم كل حقوق الإنسان
وتكلف بكل أعمال الاستثمار والانتاج ، فهي تغبطك أيضاً حتى
على عين تذرف الدمع سخينا عليك ، وعلى قلم يتحرك حذبا بك !
حتى أنصارك وحماتك أيها الفلاح أعداء القدر !

نعم ! تكاد الصورة التي يتصورها كثير منا عن فلاحنا
تتلخص في الهمجية وفي الشر والسفك ، ونكاد لا نعرف عنه
سوى جوانب الشر ، أما الجوانب الأخرى البيضاء فنجعلها كل
الجهل أو لا نحب أن نعرفها ازوراراً و صلفاً و عتواً ، وذلك لأن
المدنية الغربية غمرتنا عقلاً و قلباً و وجوداً و احساساً ، و أبعدتنا عن
الركون و الحنين الى جمال البساطة و جلال البداوة و الشقة على
الفقر و الرحمة بالبائسين ، فأفسدت علينا قلوبنا و حواسنا بما
انتزعت منا خير ما يشرف انسانيتنا و يسمو بها : الرحمة و الوفاء !
و لقد تكون العلة الاولى و الباعث الاكبر في ابتعادنا عن
الفلاح و عن خلطه و معاشرته و مجالسته و احتقار الكثير له هو
بكل أسف جهله و عدم تحضره الذي يتسبب عن جهله ، ولكن
هل هو الذي ارتضى لنفسه الجهل و عدم الحضارة ؟ هل هو الذي
حبس نفسه في هذا السجن المظلم بعيداً عن النور و عن الحق و عن
الجمال ؟ و بعبارة أخرى هل هو الذي اختار لنفسه أن يكون عبداً
لذاك أسيراً لحكامه فقيراً بائساً محروماً ؟ ليس المسكين هو المولوم
و ليس هو الذي يريد لنفسه عار الجهالة و ذلة الغباء ، و لكنهم
أنكروا وجوده و سلبوه حقوقه و ألقوه في غياهبات الجهالة لئلا يفتح
عينيه فيرى النور و يبصر الحقيقة و يعرف العالم و الموجود !
ولكننا — في سبيل الحق وحده — لا نريد أن ندع هذه
النقطة تمر بدون أن نعمله نصيباً من اللأمة الى حد ما و ان تك

خارجة حقا عن ذاتيته وارادته المجردة ، فان العصور السود - كما قلنا - التي مر بها الفلاح المصرى وأخصها عصر المماليك المنكود قد أورثته الاستكانة وحببت اليه الاخلاص الى الكسل بما يقرب من الرخاوة تجاه حقوقه ومطالبه ، وأورثته الذلة والخضوع حتى ظهر الجهل فيه بثوب البلاهة ، ولا يزال هذا الميراث يتوارثه الابن عن أبيه عن جده ، حتى كأن الجهل أصبح لديه لذة لا تعد له لذة ، وحتى أصبح طلب العلم عند الكثير منهم أمراً نكراً ويكاد يكون الحادا ، فكثيرا ما نرى بأعيننا ان الطفل فى القرى لا يخرج الى الكتاب إلا باكيا من الضرب ، وإلا مكتفا أو مشدوداً حتى لا يعبت برجليه من الجماع والغضب ، وكثيراً ما نرى ان الاب يرسل ابنه للكتاب أو للمدرسة ، فاذا ضربه الفقيه أو (الشيخ) أو المدرس ولو ضرباً خفيفاً لانه لم يقيم بواجبه ، ذهب الولد باكياً منتحباً الى أمه شاكياً الشيخ او المدرس اليها ، فتأخذ هذه الام فى لعن المدرس أو الشيخ وفى استنزاع الغضب والسخط على العلم الذى من أجله يهان ابنها العزيز وتجرح كرامته وتدمع عيناه ، وهنا تمنعه مطلقاً عن الذهاب الى الكتاب أو المدرسة ، والاب بما انه لا يدرك قيمة العلم يترك ابنه يتربى كما يتربى هو بين الحقول وعلى الاكوام خيراً من الكتاتيب أو المدارس ، وخصوصاً لانه ينتفع منه فى استخدامه معه فى العمل ومساعدته ، وخير له أن يرى ابنه يتدلل على ركبتيه فى قذارته البالغة أقصى مراتب القذارة،

من أن يرسله بعيداً عنه للكتاب أو للمدرسة فيحرم رؤيته
واستخدامه معه ، وكم من مرة لاحظت في مشاهدي وأنا في الريف
أن الأب يرسل ابنه للمدرسة أو للكتاب ، فإذا حدث أن الابن
مرض وهو في غضون الدراسة تستدعيه الأم إليها ليقبى بجانبها
وليلعب على ركبتيها وتمنعه عن الذهاب إلى الكتاب أو المدرسة
التي سببت مرضه وابعده عنها ، وهكذا يضع جانب كبير من
ثروتنا العلمية، وهكذا كم يدفن من درر وجواهر في التراب أصبحت
بفضل الاهمال احجاراً مبعثرة على الأكوام تلمو بها الصبية والعلمان
كان ينقصها لأن تكون جواهر ودرر تبعث النور والقوة والعظمة
يد تنفض عنها ترابها وتخرجها من رمالها ، وتعهدها بالحفظ والرعاية
والصقل والتهديب ! وهكذا يقضي على نبوغ عدد كبير من اطفالنا
وشباننا وهم لا يزالون بعد في مهاد العلم وأولى مراتب التشقيف
والتهديب ، ما بين بلاهة الأمهات وغباء الآباء !

لا يمكننا ان نعرف نفسية الفلاح معرفة حقة قائمة على الصدق
الا اذا درسناها درسا عملياً وعاشرناه، حتي يظهر لنا الجانب الايض
والجانب الاسود فيه ، وإذا فعلنا ذلك كنا قضاة عدولا !

لعل أيين ظاهرة خلقية في فلاحنا هي « القناعة » كما قلنا حينما
تحدثنا عن حياته ، وسنرى حين نتحدث عن سعادته أن هذه القناعة
وهذا الاطمئنان الى ما يعلم هما سر راحة باله واسعاد فكره أمام
ما يعاني من آلام وما يكابد من ضنك وحرمان وبؤس ، فهو يقنع

بكل شيء قل أو أكثر ، ويرضى بما يكتبه الله له من نصيب وقسمة
ورزق . سعادة كانت أو شقاء ، فإذا كان كل شيء مصدرة الآله
ومرجعه الى الخالق فليس علينا كعباد له مخلصين مؤمنين الا أن
نرضى ونخضع لارادته فينا وحكمه علينا ، فهو تعالى مصدر الخير
ولا يصدر منه الا الخير ، ولا يقصد بنا الا الى الخير ، فمن الخير
اذن أن نرضى بكل ما قسمه لنا من نصيب في الحياة ، ومن الخير
أن نحول آلامنا بأنفسنا الى لذات وان نجعل من الشر خيراً ومن
المنكر معروفاً ، وأكبر سعادة لنا هي ان نقنع بما بين أيدينا وبما
ينزل علينا من عند الله ، لأنه تعالى هو الذي أراد ذلك لنا ، اذ
ليس في أيدينا وسيلة ما الى تحقيق مطامحنا بأنفسنا ، فإذا كنا
عاجزين هذا العجز فمن الحكمة أن نقنع ومن حسن الرأي أن نرضى
بمقدورنا ونخضع لمصيرنا ، واهل غدنا يكون أكثر توفيقاً ويمنا
من يومنا ، واهل يومنا يكون أحسن حالا من أمسنا ، ولعل الله
يحدث بعد ذلك أمراً ويجعل من العسر يسراً ؟

هذه النفسية الراضية القانعة بكل شيء في الفلاح هي التي تجعله
دائماً راضياً وديعاً متفائلاً مغتبطاً ، فان أصابه ضرر أو ضيم أو أصاب
زرعه وبال أو خسر ، لا يتبرم ولا يتضجر لأنهما ينافيان الخضوع
لحكم ما يأتي به الله ولأنه لا يجديه الضجر أو التأفف ، ولكنه بدلاً
من هذا يحمد الله على السراء والضراء والبؤس والنعمى وعلى الخير والشر
على السواء ، فإذا فجع في ولد له عزيز عليه لم يذهب به الحزن والأسى

ما يذهبان بسائر الناس من عويل ونباح وشبه ذهول وضعف ايمان،
وانما يسلم نفسه الى الله ليهبه السلوى ويمنحه العزاء ويوليه الصبر، واذا
أصابته مصيبة لا يسعه الا أن يفوض أمره الى الله، ويقول لنفسه:
لعلي في غدى أكون أحسن توفيقا واسعاداً منى في يومى وأمسى
والعل ذلك نتيجة غضب الأله عليّ لذنوب اقترفته أو جرم اجترمته
فاستحققت هذا الجزاء !

هذه النفسية الراضية الهادئة المستسلمة كما قلنا قبل الآن هي
أحسن ما فى فلاحنا من خلق وهي التي يحسد عليها حقاً، وسنرى
انها « ونعيم الجهالة » هي سر وسعادة هذا الفلاح سعادة تعز على
الكثيرين، ولعل السبب الحق فى عدم قيام هذا الفلاح فى وجه
ظالميه والخروج عليهم بالعصيان، فى العصور الماضية الدائرة . هو
هذه النفسية الراضية المسالمة الناعمة القانعة المطمئنة راغبة او مكرهة
الى ما تعيش، هو هذه الظاهرة الخلقية الفذة التى تهيم على كل
وجوده وتؤثر فى كل حياته، ولذلك عرفها حكماء وملا كه فاستغلوها
واستخدموها فى أذلاله وأرهاقه، وحسبوا الرضى بلاهة والقناعة
سذاجة، والاستسلام مسكنة وذلاً وعجزاً، والصمت والسكرات
قبولاً للذل ورضى بالهوان !!

سبق ان تحدثنا عن اعتقاد الفلاح وسمينا ايمانه « ايمان العجائز »
والآن ما دمنا نتحدث عن نفسيته أو عالمه الباطنى بمعنى أدق،
فنحب أن نذكر كلمة عن هذه الاعتقادية سواء أ كانت دينية أم

غير دينية ، الفلاح أ كثر الناس محافظة على دينه كما يتصوره
 ويفهمه فأغلى شيء يحرص عليه ويدود عنه ولو بالمهيج والارواح
 هو دينه ، ولذلك يكره ويتعصب ضد كل من على غير دينه من أصحاب
 الأديان المنزلة الأخرى وغير المنزلة ، ولعل التعصب من أجلى الظواهر
 الخلقية المبينة في خلقه وفي اتجاهاته ، ولكن هل نطلب من نفس
 جاهلة لم يهذبها العلم أن تخلص نفسها من جهالة التعصب لتعيش في
 نور التسامح ؟ اذن لنكونن قساة ظالمين لا نفهم طبيعة الاشياء !
 ولما كان الدين والمحافظة عليه أ كبر شاغل يشغل الفلاح كان
 لذلك أ كثر الناس خلطا لكل شيء ، ولكل مسألة بالدين ، وهو
 يراه كل شيء في الحياة وكل ما سواه باطل وافك . وربما يعال
 خوفه من التعاليم بهذه العلة فانه يخشى أن يضعف العلم من دينه أو
 يبدد يقينه لانه يسمع من بعض رجال الدين وأصحاب العمام
 الكبيرة الذين سماهم يوما ما أحد كبار أدبائنا «رجال الكهنوت»
 والذين خشى المرحوم الامام أن يقضوا على هذا الدين بجهلهم
 وعميتهم ، يسمع منهم كثيراً بأن العلم والدين لا يمكن أن يتآخيا
 معاً ، فاذا حضر أحدهم يجب على الآخر أن يغادر المكان لان
 الارض الواحدة لا تسعهما معاً ، واذا علمت ان أمثال هؤلاء المتعالمين
 كثير في ريفنا ويعيشون وسط فلاحنا المسكين ، فلا تلم هذا
 المسكين اذا صدق دعواهم واطمئن الى قولهم وكذبهم ، لانه
 يتصورهم خلفاء الله في أرضه ويتصور كلامهم من لدن عزيز حكيم .

وأين تذاع وتصدق وتنجح سبل الاحتيال والنصب وطرق الخديعة والكذب في خير من ربوع الجهالة وأمكنة السذاجة ؟
 وحرص الفلاح على دينه ومحافظته عليه وتعصبه له ملائم كل الملاءمة للبيئة التي تحوطه وظروف العيش التي يعيشها ، فهي بيئة كما رأينا هادئة ساجية ، فيها يبدو الكون أعظم ما يبدو ، وتظهر الانهائية على خير ما يمكن أن تظهر ، وهذا الهدوء يساعد الى درجة كبيرة على التعبد وعلى التفكير في عظمة الخالق وسعة الكون وسر الانهائية وابداع الوجود ، ونستطيع لنا أن نقول أكثر من ذلك : أن نقول أننا يمكننا أن نرى الله في الريف خيراً مما نراه في المدن !! ولسنا نحب أن نتوسع في هذا المعنى فلقد أتينا بما فيه الكفاية على ما نظن حين تحدثنا عن الريف وعن صلته بالعبادة وبالتقديس وبالخلق وبالجمال !

تلك هي العقيدة الدينية للفلاح بوجه الأجمال ، فما هي العقيدة القومية أو الوطنية له ؟ يؤمننا أن نقرر هنا في غضون وتضاعيف هذه الرسالة حقيقة لا ينكرها الا مكابر ، وهي ان القومية المصرية لم تأخذ بعد شكلها الثابت ولم تتركز بعد في أذهان المصريين تركيزاً واضحاً منظماً مدعماً ، وإذا كنا نتحدث عن الفلاح فقط فنقول انه بحسب ظروفه وطبيعته وجوده لا يدرك شيئاً لمعنى « القومية » أو لمعنى « المصرية » ، فأحياناً يخالط بين هذه « المصرية » با « تركية » وأحياناً أخرى با « عربية » ، فهو اذن يخالط الاعتبارات الدينية

دائماً بالاعتبارات القومية ، ولا يزال الآن يقول لك نحن « أولاد
عرب » ولا يزال الكثير يتمسح بالترك « وبالذولة العلية » ويتعصب
لها ، ولا يزال الفلاح اذا سأله : ما جنسيتك ؟ يجيبك : من المنوفية
أو الغربية أو أسيوط ولا يخطر بباله مطلقاً انه من « مصر » ، هذا
القطر المعروف بمحدوده المعروفة ، ولا يزال الآن يفهم أن أصله
يرجع الى « العرب » وأن تاريخه يبدأ بتاريخهم ، ولسنا ندري
الى الآن مدى تأثير هذا الخلط الذي نخشى أن يفضي إلى ضياع
قوميتنا وسط هذه الجهالة والعمالة ؟ ومن المؤلم حقاً أن تسمع من
الفلاح الذي ينتقل من مديرية إلى أخرى لأسباب معيشته أنات
الشكوى والحنين لوطنه الذي فارقه والذي يعد نفسه غريباً في
الجهة التي انتقل اليها ، فهو إذا كان أصله ومولده في المنوفية ، وعاش
في البحيرة ، حسب نفسه غريباً عن الوطن كما يحسب المصري
نفسه غريباً في فرنسا مثلاً ، ويأخذ في التأم والتوجع واسترجاع
الذكريات ، والحنين المبكى أحياناً

هذا التخلخل في الشعور بالوطنية الحقة والأحاسيس بالمصرية
العريقة الخالصة ، وهذا التوزع المبدد للجنسية ، يلاحظ بأجلى
وضوح لدى فلاحنا الذي لا يفقه معنى قومية ولا يدرك معنى
« مصرية » وبالتالي لا يقدر لنفسه « ذاتية » خاصة معروفة !
ونحب أن نذكر هنا في سبيل الحق وحده أن الفلاح أبعد الناس
عن طرق النفاق ووسائل الزايف وأساليب الاحتيال ، فما الذي يدعوه

الى النفاق والتليق إذا كان القدر قد كتب عليه ان يكون بعيدا كل
 البعد عن حكمه ، ثم لماذا يرتجى منهم من الخير والمعروف ، وهو
 يعرف حق المعرفة انه مهما نافق وتزلف فان قلوبهم التي قدت من
 الصخر واقتطعت من الحديد ، لن تخفق بالشفقة عليه والرحمة به ،
 وفضلا عن ذلك فانه قد ورث هذا الابتعاد والخوف والرغبة من
 الحكم والملاك الظالمين ، وأصبح فيه كل هذا غريزة أمماها
 الزمن وقوتها العصور المتعاقبة وأساليب الحكم المتعددة ، حتى أصبحت
 العلاقة بينه وبين حكمه وبين ملاك كه علاقة نفور وعزلة ورغبة بدلا من
 أن تصبح علاقة حب ووئام ورغبة ، وتنتج عن هذا النفور وهذا التباعد
 أن تربى فيه روح الجود والجهن والخضوع ، والاعتقاد بأنه
 لا يرتجى له اصلاح أو خير من حكمه وملاكه ، حتى أصبح
 لا يقابل اشاعات الاصلاح المزعوم وكثرة مستخرجات معمل
 « المشاريع » الا باسماء ساخرأ هازئا بل يأسا ، وذلك لأن هذا
 الاعتقاد أو بمعنى أدق لان هذا اليأس من اصلاح الحال ومن تغيير
 نظام معيشته ، أصبح جزءا من حياته وشرطا من وجوده ، وأصبح
 يهيمن عليه ويملك عليه كل أموره لدرجة انه يكاد يتصور انه دون
 الناس جميعا قد قدر له البؤس والفاقة والحرمان ، وانه كما ولد
 محروما مسكيناً جاهلا ، وكما يعيش مكدورا شاكيا بئسا ، فسيموت
 أيضا فقيرا مهملا منسيا ، ولذلك فلا وفق له أن يبقى على ما هو عليه

وان يرضى بنظام حياته ، سواء أكان نظاما محمودا أم مذموما ،
قائما مكرها بذله وبضيمه وجهله

ومن الحرص على تقرير الحقيقة هنا أن نقول ان فلاحنا
المصرى يعيش ما يعيش غير شاعر بالحاجة الى الاصلاح شعورا
قويا محمدا منظم ، فان الظروف التي يعانها والبيئة التي يعيش فيها ،
وشعوره الوراثي الذي ورثه عن آبائه وأجداده في عصور العسف
والجبروت والظلام ، كل هذا جعله لا يعرف من جوانب الحياة
الا جانباً واحداً هو الذي يسير فيه وعليه وبه ، فاليأس المستمر
جعله يجمل تصوير الامل ، والجهل المطبق الذي يعيش في ظلماته
دعاه لا يعرف تقدير العلم ولا يشعر ببهر النور ، والحكم الاستبدادي
الذي عانى ويعاني ظلمه وارهاقه أفقده تقدير العدل ، وظروف البلاد
السياسية بما تخللها من نير الاحتلال وبطش الاستعباد أبعدته عن
الشعور بمعني الحرية والجهاد لها وفهم مداها وسامي غرضها ، لدرجة
انه يخيل اليها أنه أصبح في هذه الحال الشعورية الغامضة المضطربة
المبهمة لا يميز كثيرا بين العلم والجهالة أو بين اليأس والامل أو بين
الاستعباد والاستقلال ! وليست اللائمة كما قلنا كثيرا في ذلك تقع
عليه هو بالذات ، وإنما على الحكم والملوك الذين أنكروا أو احتقروا
وجود انسان له من « حقوق الانسان » نصيب محترم لا يقبل
التبديد أو الاستلاب ، وإنما على تلك الظروف السياسية القاهرة التي
نكبت بها البلاد طول تاريخها وحياتها ، وإنما أخيرا على الروح

الاجتماعي الذي تجاهل الى الآن هذا الصنف من الانسان ولم تأخذه فيه عاطفة انسانية نبيلة تحرك الشفقة عليه والرحمة به

سيقول القائلون : اتنكر نصيب الفلاح في النهضة الكبرى وفي الثورة القومية التي برهنت أنه يقدر حقاً — بخلاف ما تقول — معني الحريات والاستقلال ؟ وليسمع لنا هؤلاء القائلون المستقبلون بأن نقول لهم اننا نقرر معهم في فخار يرفع رؤوسنا وفي عزة تعلو كبرياءنا نصيب الفلاح الأكبر في ثورتنا وفي الدفاع عن الحرية ، ولكن نقرر في سبيل الحق وحده بأنه لم يكن اندفاعاً لدنياً بحتاً مصدره الشعور الحق ، الشعور العالم المبصر المقدر ، لم يكن اندفاعاً ذاتياً فرداً يشعر فيه كل انسان باحساس باطني قوي يحفره إلى ادراك وتنفيذ ما يريد وما يشعر ، عن فهم وحسن تقدير وتبصرة ونفاذ رأي وشعور بنقص وحاجة الى الاصلاح ، وانما كان اندفاعاً مجموعياً شعبياً ، مصدره التيارات الشعبية وروح الجماعات التي هي الى التقليد أكثر منها الى أي شيء آخر !

لم يدعنا الى هذا التقرير الذي يحسبه البعض مرا والذي نعتقد فيه بحق ، الا حرصنا الكبير في تصوير فلاحنا تصويراً يرضي الحق والضمير والواقع ، والاحرصنا على أن نقرر بأن سياسة الحكم والملاك في مصر وسياسة الظروف القاهرة أيضاً اشتركتا معنا في تكييف فلاحنا هذا الكيف الذي نشاهده ونلاحظ آثاره ونتائجها ، ونحن نبكي من الألم ونتحرق من الحسرة لحاله ولحياته التي لا يمكن أن يرضى بهما

انسان يحمل هذا الاسم السامي وهذا المعنى النبيل ، وتحركه نحو
أخيه الانسان ولو أبسط عوامل الرحمة وصنوف الشفقة !!
ولقد يكون من تحصيل الحاصل كما يقولون أن تقرر هنا كرم
الفلاح المصري وبذل كل ما في طوقه واستطاعته لأراحة وارضاء
أضيافه ، واسنا نذيع بدعا أو نبالغ في الادعاء لو قلنا أنه أكثر
من أخيه المصري المدني نصيبا من الجود وقسطا من الكرم الذي
كاد يصبح غريزة من غرائز وخلقة من خلالاته وسمة من سماته ،
ولا بدع في ذلك فقدما كان الكرم ولا يزال من خصائص الشرق
وبخاصة الكرم المصري الذي نعتقد أنه جعل مصر نهبة للطامعين
وتكية للمعوزين وملجأ للمتشردين ، والذي جعل من المصريين
قوما « طيبين » كرماء اضيوفهم ، كرماء فهمه المستعمرون ورجال
المطامع والاغراض ضعفا ووداعة وطيبة ينفذون منها الى ما يريدون
ويطمعون !!

والجمال ! ماذا يكون شأنه عند فلاحنا مادما نتحدث عن « عالمه
الباطني » ؟ اذا كان الفلاح ما شاهدنا من سذاجة ومن جهل ومن فقر
بالاستمتاع بالحياة والشعور بالوجود والحرمان من الخضوع لسلطان
الجمال القاهرة ، فلا ننتظر مطلقا ان يكون له ذوق خاص محدد في الجمال ،
او بمعنى آخر ان يكون له سياسة أو ثقافة منظمة محكمة في تقدير الجمال ،
ففلسفة الجمال لو شئنا أن نسميها كذلك بسيطة عنده جداً ، تسكاد
تقوم على الالوان لو احببنا أن نحصرها ونحدد حدودها ، وهل تريد

من شخص لا يعرف من الوجود الا ظاهره ومن العالم الا جانبه
الخارجي المرئي المحسوس ، والا ان يحصر معرفته وشعوره في الناحية
الظاهرة المحسوسة من الوجود ، الناحية المادية التي ينتفع منها ويبصرها
ويعرفها وتغذي استعداده وميوله وشهواته جميعا ؟ فالمرأة الجميلة
عنده المرأة البيضاء او السمراء ، البدينة او الهزيلة ، التي لم يخلق
جمالها في هذه الأرض وفي هذا العالم الا لتشبع شهوات الناس ،
وترضى حاجاتهم الدنيا .

واذا ذكرنا الجمال فهل يخلق بنا أن ننسي الحب ؟ ومتي كان
الجمال والحب منفصلين ؟ او ليس الجمال هو أساس الحب واننا
لا يمكننا مطلقا أن نحب شيئا ما الا متي استجملنا فيه شيئا يدعونا
الى الميل اليه والاعجاب به ثم بحبه ؟ واذا كان الجمال كما رأينا عند
الفلاح فما حال الحب لديه ؟ واذا كانت المقدمات في القضايا المنطقية
يجب ان تنتج نتائج تتفق واياها ، فهل يكون شأن الحب عند
الفلاح غير شأن الجمال والاثنان من دم واحد ومن سلالة واحدة ؟
واذا كان كل ما يعرفه ويفهمه ويتذوقه من الجمال هو الجمال
الحسي او بمعنى أدق « الشكلى » على حد التعبير القانوني فهل يكون
الحب لديه أيضا غير الحب الحسي الذي لم ينل نصيبا ما من « الملائكية
او السماوية » بل كاه من « الانسانية أو الأرضية » لو صحت هذه
التعابير ؟

واذن فلنا أن نتساءل : هل يدرك الفلاح معنى الحب ؟ تطارف منا
ولا شك أن نطلب منه أن يفهم الحب كما نفهمه ويقدره كما نقدره
الحب هو سر حياتنا بل هو غذاؤها بل هو لب لبابها ، بل
هو أنبل ما فيها وأسمى رغم مكابرة المكابرين وانكار المنكرين ،
والا فماذا تكون هذه الحياة اذا جردناها من الحب ؟ انها تكون
ولا شك مهزلة الصبية ولعبة الاطفال ، بل ماذا يكون الجسم اذا
انترعنا منه القلب ؟ انه يكون خرابا ينشق فيه الغربان ! نحن نحب
ولذلك نحن نعيش ونحيا في الحب ومن الحب وبالحب ! وليس
الحب كما يتصوره بعض الفارغين الذين حرّموا « الروحية »
والملائكية ، والذين عاشوا ويعيشون طوال حياتهم في المادة
والنفعية ومن أجل المادة والمنفعة وحدها ، وانما هو كما قال (تاجور)
كمال الشعور بالنفس ، أو كما يقول (لامارتين) « لم يخلق الانسان
إلا للحب ، فهو لا يشعر برجولته وانسانيته الا يوم يشعر حقيقة
انه يحب » !

فأين للفلاح إذن ادراك الحب هذا الإدراك وتصوره هذا
التصور ! ولكن أنسيت ! هو يفهم الحب ويدركه ، لأنه أحيانا
يحب ، ولكن أي حب وأي شعور بالحب ! ذلك الضرب الخبيث
المنكر من الحب ، الحب الذي يستقي منابعه ويستلهم وحيه من
شهوات النفس الجسدية ونزواتها الدنيئة ، ذلك الصنف من الحب
الساقط الذي يعيش على استمتاع الجسد وحده واشباع النفس

وحدها بأحط أغذية الهوى فاذن هو يتخذ وسيلة لا غاية ولهواً
لا مثلاً أعلى ، واشباع جسد لا غذاء روح وقضاء شهوة لا فناء
الحبيب في الحبيب ، فناء اندماج لا فناء اتحاد فقط ، ولا سعياً وراء
الكمال الانساني وكال الوجود من طريق الحب !!

ومن الطبيعي الا تنتظر أن يكون زواجه قائماً على دعائم
الحب من الطرفين المتعاقدين أو يقصد به الشركة الروحية والصلة
القدسية الطاهرة بين الزوجين الشريكين المتحابين المكمل أحدهما
نقص الآخر ، الفاهم المدرك كل منهما وظيفة وحقوق الآخر ،
ولسنا نحب الآن أن نتبسط معك في هذه المسألة ولكننا نرجئها
الى حين نخصص الحديث عن الريفية كما أخذنا على أنفسنا أن
نتحدث عن الريفي !

ومما نحب أن نقرره هنا بمناسبة هذه المسألة اننا لا نحكم على
الفلاح وحده هذا الحكم من حيث النظر والأدراك لمعنى الحب
وتقدير الجمال ، بل نشرك الكثير جداً من أبناء مصر في هذا
الحكم ، فلا يزال الكثير منا ينظر الى الحب والى من يحبون
فتيانا كانوا أو فتيات ، نظرة الفاسقين المرتكبين أفعالهم عار
ووصمة ، ولا يزال الكثير جداً لا ينظرون الى الحب ولا يدركونه
الا بقدر ما يشبع نفوسهم ويغذى جسومهم ويرضي شهواتهم الجسدية ،
ويقولون لمن يتحدث عن الحب الخالف لذلك : انك خيالي أو انك
شاعر لا تعيش في الأرض بل في السماء ! وكثير جداً منا أيضاً

من لا يزال يلوم ويقرع كل من يجده يقرأ في كتاب أو رواية
تتحدث عن هذا الحب الذي تقصده بالذات مهما سمت معانيها
ونبت مراميها ، لأن الحب عندهم محرم ، والحديث فيه محرم ،
والذي يحب عاطل لا عمل له ، وهكذا يريدون أن يعيش الناس
في أديار أو صوامع ، أو ينزلوا بأرواحهم من سماواتها لتعيش في
أرضهم ووسط عالمهم الذي يقوم على عبادة الجسم وحده وعلى
اهمال القلب وتجاهل الروح !!!

وإذا حدثناهم برسالة المرأة في هذا الوجود ، المرأة الكاملة
الجميلة المثقفة المريدة ، أو بقوة الحب الخالقة أو الباعثة ، فما أسهل
أن تجرى على ألسنتهم ، شعراء ! كأن الشعر مستودع الكذب ومنبع
الافك والبهتان في هذه الحياة في هذا البلد !

يسمع كثير منا في المدن عن الفلاح انه شرير سفاك ، أبعد
الناس عن الخير والشفقة ، وأكثر الناس تعطشا للدم وللشر ،
ولا شك في أن هذا الحكم جانباً كبيراً من الظلم على هذا المسكين
وقد يطغى الشر على الخير فلا يذكر الناس إلا الشر وينسون أو
يتناسون الخير ، والشر كثيراً ما يذكر والخير قليلاً ما يتحدث عنه
كما يقول العظيم شكسبير !

لا يمكننا مطلقاً أن نقول ان الفلاح بعيد عن الشر ، فقد يكون
هذا اسرافاً منا دونه أي اسراف ، بل انكاراً للحق دونه أي

انكار ، واكنا نقول أن هذه الصورة التي تنقل الينا في المدن عن
الفلاح المصرى قد كبرت ولا شك ، وفيها نصيب كبير من البعد
عن الحق وعن العدالة

كل منا في هذا الوجود مركب من عنصرى الخير والشر ،
بمقدار يختلف ضعفا وقوة وقلة وكثرة ، ولا يمكننا مطلقا أن نعمل
على محو الشر فى الوجود والغائه من عناصر الانسانية اللازمة ، فهو
عنصر ضرورى للحياة ، اكملها ولنظامها ورقيا وحفظها ، ولقد
قال (تاجور) فى هذا المعنى : «سؤالنا : لماذا كان الشر فى الوجود ،
هو نفس سؤالنا لماذا كان النقص ، أو بمعنى آخر لماذا كانت الخليفة
جميعا ؟ »

ثم ما لنا ننظر الى الشر هذه النظرة القاسية الخاطئة ؟ فهل كان
يكون للوجود بغير جوانب متضادة وظاهرات متعاكسة وأوجه
متقابلة ؟ ان هذا التقابل أو هذا التضاد هو السر فى ضبط نظام
الوجود وتوازن الانسانية الدقيق المحكم ، هو النعم الرقيق الهادى ،
فى موسيقاها الخالدة ، الناتج من ضرب أوتارها العديدة المختلفة
اذن ليس الشر الا ظاهرة من ظاهرات الوجود الضرورية
كان لا بد منها لىبقى للوجود قوته وانتاجه وجماله وتوازنه ، وليس
هو من الوجهة الفلسفية البحتة الجهة المضادة للخير ، كما ان النقص — كما
يقول « تاجور » ليس هو نفي الكمال أو ان النهاية تضادها

اللانهاية والسكنها جميعا ، ليست الا كمالا يبدو موزعا ، واللانهاية
تظهر في خلال حدود وتخوم !

لا الخير ولا الشر غريزة فينا كامنة في نفوسنا من يوم ان
ولدنا وظهرا في هذا الوجود ، وليس الانسان طيباً بطبعه كما يقول
صاحبنا (روسو) حينما أراد أن يبرىء أخاه الانسان من الاستعداد
للشر ويسند كل هذا الى الاجتماع الذي أفسده بعد صلاح ، وفي
هذا ولا شك اسراف أي اسراف من صاحبنا (روسو) الذي
أراد أن ينسب كل الشرور الى المجتمع الانساني حتى اشتط في
الاتهام وسوء الظن وكاد أن يؤله الانسان وينزهه عن الخطايا
ويعصمه من الشرور ، ولذلك نصحه بالركون الى الطبيعة وحدها
ففيها النجاة من الشر ومن الرذيلة ، ثم قال اننا ما صرنا الى ما نحن
عاليه الآن الا لبعدنا عن امننا الطبيعة فنحن في الاصل أختيار والجماعة
أو المجتمع هو الذي جعلنا أشراراً !!

يريد روسو منا أن نكون في مثل وحدة حي بن يقظان أو
روبنسن كروزو . فهل لو تأتى لنا هذا اللون من الحياة نكون سعداء
كما يصور لنا روسو ؟

وهل اذا أمكننا نحن أن نهرب من المجتمع الانساني وأن نركن
الى الطبيعة وحدها ، فهل نكون في هذه الحالة قادرين على تحقيق
آمالنا وبلوغ أطماعنا ؟ ليس المجتمع وحده هو الذي يفسدنا بل
نحن شركاء أيضا في الجريمة ، وليس المجتمع هو الذي يدعونا اليه

بل نحن الذين نسعي اليه ونلح في السعي ، لأننا لا يمكننا مطلقاً أن
 نحيا حياة راضية انسانية محترمة بعيدين عن الاجتماع الانساني
 يقول روسو ان عنصر الخير هو الاصل فينا ، أما عنصر الشر
 فعارض جديد ونزىل علينا ، وفي الحق حسبنا نعتقد ونؤمن اننا لسنا
 أخياراً في الاصل كما يقول روسو ولا أشراراً أيضاً كما يريد البعض
 أن يقول ، واننا يوم نولد ونظهر في هذا الوجود لا نعرف ما هو
 الخير ولا ما هو الشر ، ولكن المسألة اننا نولد ومعنا غرائز تنمو
 معنا وتكافح معنا الحياة كما تكافح ، وهذه الغرائز ليست الا قوى
 نستعين بها على العيش وعلى الحياة ، وهذه الغرائز دائماً في كفاح
 مع بعضها وفي تفاعل مع اخواتها ، وتتنازع على البقاء كما يتنازع
 الاحياء جميعاً فالاقوى منها يتغلب على القوى ، والقوى يتغلب على
 الضعيف ، وهذه الغرائز ولا شك تتكيف وتتوجه وتتلون بحسب
 روح الجماعة وبحسب التربية وبحسب البيئة الزمانية والمكانية معاً ،
 وفي كل منا جانب من الخير وجانب من الشر يتنازعان دائماً
 الانسان ، والظفر أخيراً في جانب الاقوى كما هي سنة الوجود ،
 ويبدأ تاريخ هذا النزاع من أول مظهر للوجود الانساني ، حتى
 جعلت الامم القديمة من مصريين وفرس وغيرهم لهذين العنصرين
 المتنازعين آلهة ، فعندهم آله الخير وآله الشر ضمن آلهتهم المتعددة ؛
 ولقد ذكرنا قبل الآن اننا من الوجهة الفلسفية البحتة لا يمكننا
 أن نقول ان الخير نقيضه الشر كما نتجاوز في ذلك في التعابير اللفظية

والبيانية ، كما انه لا يمكننا مطلقا أن نقول ان الابيض تقيضه الاسود
أو ان الفضيلة تقابلها الرذيلة أو ان الحب يقابله البغض ، فليس كل
هذا في الحق الا تجاوزا منا وتعابير اصطلاحية ورثناها أو تساهلنا
في تردها ، وليست كل هذه الظواهر الا مسائل اعتبارية نسبية
تخضع لمبدأ النسبية الذي يخضع له الوجود جميعا أو على الأقل
الوجود الانساني ، فلا يمكننا مطلقا أن نجزم بأن هذا العمل خير
وذاك شر ، فلا الخير خير أمحضا ولا الشر شرأ بحتا ، وقد يكون
خير في شر ، وقد يكون شر في خير ، وقد يكون العمل الواحد
خبيرا وشرامعا ، وقد يكون لا الى الخير ولا الى الشر ، وقد يكون
خبيرا في عصر وغير خير في عصر آخر ، وقد يكون شرالك
وخيرا لي ، مما يثبت ان الحياة تمنع منعاً باتا « الأطلاقية المحضة »
(**Absolutisme**) وان العقل الانساني يقوم بوظيفته في حدود
النسبية وحدها !!!

ونعود الآن الى موضوعنا : هل الفلاح خير أو شرير ؟ وأي
العنصرين أغلب فيه على الآخر ؟ وما العلة في ذلك التغليب ؟
كل ما ذكرناه الى الآن عن نفسية الفلاح كانت نسبة الخير
فيه أكثر من نسبة الشر ، أي اننا ذكرنا وشخصنا الناحية الخيرة
فيه ، ونحب الآن أن نتحدث عن الناحية الاخرى تماما للحديث
واستيفاء للموضوع ، ويلاحظ اننا لم نشأ التعمق العلمي التحليلي في
بسيكولوجية الفلاح وتشخيص « عالمه الباطني » في هذه الرسالة التي

كما قلنا كثيرا تأخذ صبغة « الاحاديث » أكثر مما تأخذ صبغة
التحقيق العلمي !

يبدو لنا من ملاحظتنا العديدة في ريفنا ان الفلاح فيه جانب
كبير من الشر قد يكون خطرا فاتكأ حين يساق الى ذلك مكرها
بدوافع خارجية ، فهو في معظم الاوقات هادئ ، مسالم ووديع ،
ولكن اذا اندفع الى الشر تكشف عنه طبيعة فاتكة ونفسية
خطرة ، فهو ينقاد الى الشر لأتفه الاسباب فلربما لان جاره في الغيط
اقتلع قليلا من زرعه أو اعتدى على مجرى الماء الذي يصل اليه ، أو
لان جاموسة جاره أو بقرته اعتدت على « جرنه » أو على زرعه في
غيطه ، بل ربما لان صبي جاره اعتدى على صبيه وهما يلعبان في
الحارة ، أو لان امرأة من نساء القرية تشامت أو تشاجرت مع امرأته
أو لان غيره مدين له ولو بخمسة غروش لم يسددها ، أو لان أحدا
قد بلغ عنه يوما وهو يسرق أو قال عنه نيمة ، أو لأن أهل جاره
قد سرقوا منه فرخة أو بطة

ولقد رأيت يوما — أستغفر الله — بل لقد سمعت ان فلاحا
رأى غنم غيره تعتدي على جرنه حيث قمحه وشعيره ، فحدث
النضال والتجاذب بالحديث ، ثم ان يديت كل الآخر الشر وتربص
به الاذى ، وفي الساعة المحددة تقابل الخصمان وحدث التصادم ،
فضرب احدهما الآخر بالنبوت فشج رأسه ، فما كان من الثاني وهو
يتضرع بدمائه الحارة التي خضبت وجهه الا ان بحث عن آلة يدافع

بها المعتدي ، فلم يجد خيراً ولا أسرع في الاجهاز على خصمه الا فأسه
الحمادة ، ولقد بلغت أيضاً بأن زوجاً أساء الظن بزوجه فلم يجد طريقاً
الى تأديبها — ان كانت مذنبه — إلا أن سحب نبوته وأثنى
تلك الزوج ضرباً بالعصا حتى هشم أحد ذراعيها وأشأه عن
الحركة وهو باسم فرح بانتقامه الموهوم ، وهو مع هذه الروح المجرمة
لم يستطع أن يثبت قالة الناس فيها كما يدعى ، ثم علمت أيضاً أن
امرأتين تشامتاً على أمر يخص زوجيهما ، وأذكر أنه هذا الامر هو
أن كلا منهما أخذت تسب الثانية في عفافها فلكيدها أخذت تتهمها
أن زوجها نفسه هو الذي داس شرفها وأتى معها فعلاً غير شرعي ،
وبعد التشاتم بالكلام قامت كل منهما الاخرى وسحبت النبوت
وطاحتها به كما يفعل الرجال ، فترى هنا أن الغيرة النسائية التي هي
من أخص صفات النساء نسيت نسياناً تاماً في سبيل الكيد وحب
التشفي والغلبة

تلك الصور المقتضبة الموجزة من نفسية جانب كبير من الفلاحين
والفلاحات تعطينا فكرة ولو تقريبية جانب الحق فيها أقوى من
جانب الباطل كما نعتقد ، عن انقياد الفلاح لعوامل الشر ، هذا اللون
الأحمر القاس الخطر ، ويبيح لنا هذا أن نقول أن الفلاح اذا طواع
الشر ففسير عليه أن يعتدل أو يترفق في شره بخلاف معظم اخوانه
المدنيين ، وحسبك انه لا يكافح الا بالنبوت أو الفأس أو البندقية
ثم هناك شيء آخر يمكننا أن نستنتجه من هذه الصورة الاخيرة ،

وهو أن العدو الشريرة قد انتقلت من الرجل الى
المرأة ، ومن الطبيعي كما قرر العلماء أن عدوى الشر أسرع خطي من
عدوي الخير ، فظهرت المرأة التي كنا نحسبها ولا نزال نحسبها ملاك
رحمة ورسول لين ونعمة ، في مظهر البؤة الضارية التي لا تعادل
في البطش ولا تترفق في الفتك ، حتي كدنا نؤمن بأن رقة المرأة
وليونة النسائية ورخاوة الانوثة قد استخفت في الريف بين الكثير
من النساء وغادر البيت ملاكه وسكنه الشيطان !!!

والفلاح اذا ما اعتزم الشر والاذى بغيره لا يهدأ له بال ولا
يطمئن له قرار حتي يرضى شهوة انتقامه التي تهيم على كل شهواته ،
فكثيراً ما يعتدي على زرع غيره تشفياً وكيداً فأما أن يقتلع
زرعه حتى يئسه من المحصول والنتاج ويضيع تعب عامه وعصارة
دمه وماسكب فيه من عرق الجسم ، وأما ان يطلق لماشيته عنانها فتعبت
بزرعه حتي تأتي عليه ، وأما ان يشعل النار في جرنه حتي لا يبقى له
محصولاً شتويًا يقوت به نفسه واولاده ونحن لا نجهل بأن هذا
المحصول الشتوي هو تكأة الفلاح وسنده في العام ، منه يعيش ومنه
يبيع جزءاً منه ليلبتاغ به حاجاته المنزلية ، وأما ان يسم ماشيته حتي
يحرمه نفعها له في العمل واستدراار اللبن منها ويحرمه أيضاً قيمتها أو
لحمها ، وماشية الفلاح كما نعلم هي كل حطامه من العيش وثروته في
الوجود وسنده في العمل وساعده حين اشتداد الازمات المالية او
حين تستحكم حلقات الحجر وأوامر (المحضرين) ، وأما ان يلجأ

الى السرقة فيسطو على داره أو على ماشيته أو على نوره أو محراثه
وهذا أو أقل منه هو كل ما يملك فلاحنا المسكين

ولقد شاهدت جماعة من الفلاحين أحبوا ان ينتقموا من خصوم
لهم في قريه ، فأفضي تفننهم المبدع في الانتقام الى أن سطوا ليلا على
جرن خصومهم حيث الغلال جاهزة متوفرة ومعدة للتخزين فأخذوها
ثم بعثروها بديا في الحقول التي بجوارهم حتي لا يمكن بعد ذلك
لخصومهم ان يستجمعوها ويفيدوا منها ، وتلك أكبر رزية لو
يفلحون وهيئات ان يفلحوا !!

هذه الصور من الفلاح ترينا جانبه الاسود بعد ان رأينا جانبه
الابيض وتظهر لنا أنه يتخذ كل الطرق للفتك بخصمه حتي ولو
أدى الانتقام الى الفتك بحياته نفسها .

قد يظهر ما أتينا به هنا من الصور عن فلاحنا البعض القراء تصويراً
ظالماً أو حقيقة مرة كما يقولون ، فما أدلينا به يشتم منه رائحة الدم
أولم يحظ منه الروح الشرى الخطر للفلاح ، ويعلم الله أننا لم ننتهج
في هذه الرسالة الا الحرص على الحق وعلى رضا الضمير فقط دون
أي نظر الى اعتبارات أخرى سواء أكانت قومية أم لم تكن ،
فانا بما نأتي به من الصور لا نبغي الا أن يكون العمل الذي أخذنا
أنفسنا به كاملاً أو قريباً من الكمال ، ولن يكون الكمال الا اذا
أرضى الحق وقدس الضمير !

ولكن ما الدوافع التي تدفع الفلاح الى هذه الشرور ؟ نحن

لا نشك مطلقاً في أن للبيئة القروية بكل محيطاتها ومؤثراتها وللوراثة ولعدم تربيتها وتعليمه واسوء حكم الحكم وسياسة الملاك ولمرور عصور الظلم والجبروت يدا لها خطرهما وأثرهما في تكوين وفي تنمية هذا الروح الشري ، فلو كان القدر يسعده بنعمة التعاليم ولو يحيط به ظروف خيرة ، ولو يعيش في أوساط راقية مهيبة مستنيرة ولويمهبه الله حكماً وملاً كما يخافون الله ويعملون ولا يظلمون ويحرمون ، اذن لساعد كل هذا علي أن يشذب من شره ويهذب من خلقه وعلى ان يقلل من اجرامه ، واذن لاستراح القضاة وعلماء الاخلاق والاجتماع وزعماء الاصلاح من التفكير في علاج لهذا الوباء الفاشي ولهذا الروح الاجرامي ، ولكان الريف المصري مستراح المكذوبين حقاً الذين يطلبون الدعة والأمن والهدوء ، ولأن الناس ولو قليلاً والى حذما على أرواحهم المهددة بسيف الروح الانتقامي المهيمن على كثير من فلاحينا والذي يظلم بسطوته وبرهته سماء الريف الصافية فلا تعود تسبح فيها الملائكة ولا تعود تبعث لأهل الارض نورا وحكمة وسراً يستمدون منها القوة على العمل والقدرة على الكفاح والعون على الايمان .

واذن لبطلت دعوى دعاة الاستعمار في أن الفلاح المصري راض عن حكمهم مغتبط بعدالتهم مهمل لسياساتهم مؤيد لاستلابهم حق شعب في الحياة وفي الحرية لا لسبب إلا لأن القوة تريد ذلك ولأن النفوس الجشعة تريد أن ترتوي وأن تأكل وتشبع ، واذن

لأراحونا بذلك من اليأس في إصلاحه حتى لا نضطر أن نذهب مع
القائلين : اليأس احدى راحتين ! ولكن اليأس لن يكون وفي
مصر اصلاحيون وفي مصر شعب كريم ينصر قضية الإصلاح وعملية
التطهير والاحياء !!

نعم ! ترونا هذه « الشريعة » في ريفنا لأنها تجعل الحياة هناك
عند الكثير غير مطمئنة وتجعل لأولئك « الجزارين » والاصوص
فضاء واسعا يمرحون فيه وعملا سهلا يضمنون منه ارزاقهم بعيدين
عن أيدي القضاء وانتقام العدالة ، ففي الليل واذا ما ترفع الوجود
بأستاره وبعاءته السوداء واذا ما سكن كل حي وجلس الزوج الى
زوجه وأولاده يستمتعون بحلاوة العيش وبنعيم الحياة ، تخرج
جماعات السفكة والمجرمين والجزارين تطالب قوتا تأكله من
أرواح الناس ومن جسومهم الطريئة الغضة ومن عويل النساء وبكاء
الاطفال وصراخ العجزة ، تخرج مسعورة كالكلاب الجائعة الذي
يمسها شيء صوب الرجل الذي تزعم أن لديه مالا يملأ جيوبهم
وبطونهم ويريحهم من عناء البحث عن العيش من طرق العمل
الشريف ، فان وقف أحد في طريقها يذود عن حياته الغالية التي
منحه اياها الله والتي لا يجوز لأحد أن ينتزعها منه الا الله ، فليس
أيسر لديها ازاء ذلك من البلطة يشج بها رأسه أو من البندقة
تحتزم صدره وحشاشة قلبه

ولا تزال للآن هذه الجماعات الشرية منتشرة في نواح كثيرة

في ريفنا وهي منظمة تنظيما متقنا ككل الجماعات المنظمة، فلها رئيس ولها وكيل ولها أعضاء، وقد تكون لها جمعية أو لجنة تنفيذية وأخرى فرعية أو عامة والرئيس هو الذي يديرها وهو الذي يوجهها نحو السلب والقتل، والأعضاء كلهم متضامنون يشعرون جميعا بشعور واحد يؤلف بينهم وبجانس بين روحهم وهم مسئولون أمام الرئيس العام الذي له حق توقيع العقاب بن مخالف مبادئ الجماعة أو يخرج عليها أو يذيع أسرارها، وليس لأي عضو إذا أمر بأمر أن يتصل منه أو يتنحى عنه مهما جل خطره وفدح شأنه. ولهذه الجماعات طرق مدهشة في تنفيذ مبادئها وفي الهرب من يد الحكام فلدورها أحيانا ألبة رجال البوليس ولديها خيول تشبه خيولهم وبهذه الأردنية يسخرون من البوليس ويرهبون الناس ويتخذونها درعا يقيهم الضبط ثم الزج في السجون، ولها دلائع أو جواسيس تخبر الباقي عن العثور على جهات جديدة يمكن لهم أن يغنموا فيها شيئا، ولهذه الجماعات مرا كز إدارة يعقدون فيه جلساتهم، فإذا ما اعتمروا على شيء في ليلة ما بثوا رسائلهم ونشروا جواسيسهم وعينوا رجالا منهم يقفون في منافذ القرية ومخارجها ومدخلها ليقوموا بالحراسة ثم عينوا آخرين للعملية الخطرة المهيبة للسلب والسفك والتعذيب بعد أن يكونوا قد ضمنوا عيون الناس ونوم كل القرية المأذنة إلى حياتها المفترية الطيبة. فإذا ما انتهت العملية ونفذوا أغراضهم واستراحت

ضماثرهم — ان كانت لهم حقا ضماثر — وزعوا الاسلاب والغنائم
لتشبع كل نفس ويتورم كل جيب وبطن
هذه الجماعات الشرية المنظمة هذا التنظيم الذي رأينا قد تنألف
من بعض العاطلين الذين لا عمل لهم أو من بعض سذج مساكين
انخرطوا في الجماعة بدافع الاغراء والايهام أو من الذين اتخذوا
السلب والقتل وانتهاك الحرمات وترميل النساء وتيتيم الاطفال
وتخريب البيوت وهدم الأسر والعائلات حرفة ومهنة لهم يتجرون
فيها ويرتزقون منها، فكما يرتزق المحامي من مهنته والطبيب من عمله
والموظف من وظيفته، كذلك يرتزق هؤلاء المجرمون المحترفون من
الدماء المسفوكة والارواح المزهوكة والاشلاء المبعثرة والاناث
الصاعدة والزفرات الحارة والنفوس المصدورة والعيون المحترقة من
لهيب الاسى والفجيرة لا من قطرات الدمع الصافية !!! وهذا
الصنف الاخير من المجرمين هو الأغلب والاقوى والأجلى خطرا
في هذه الجماعات الاجرامية ، فاذا تصورنا الحالة الاقتصادية للسواد
الغالب في ريفنا أمكننا بكل سهولة ان نفهم كيف يوجه المال هؤلاء
المجرمين المحترفين الى حيث يريد ، فاذا أردت أن تنتقم من خصم
لك كبير انتقاما نهائيا لا يعود منه الى هذا الوجود ، فليس عليك الا
ان تضع يدك في جيبك وتدسها في يد أحد هؤلاء المحترفين الذين
أصبحت عندهم صناعة القتل والسفك وقبض الارواح سهلة هينة
مريحة كما تصبح صناعة الكلام سهلة للمحامي المقتدر وصناعة

الكتابة سهلة للكاتب الكبير ، واذا ما وصل المال لليد الأثيمة
ضمنت رأس خصمك منتزعا من جسمه في راحة يدك فتفعل بها
ما تشاء لك الخصومة !

هذا اللون من الاجرام وذلك الضرب من الشر الخبيث، ونقول
خبيثا لأنه قد يكون هناك شر طيب نافع . هذان اللونان الخطران
من الاجرام ومن الشر يتفاوتان قوة وضعفاء، فلسنا ننظر الى السارق
كما ننظر الى القاتل ولسنا نحكم على صاحب السرقة الكبرى بما
نحكم على صاحب السرقة الطفيفة الصغرى ، ولسنا ننظر الى جريمة
القتل بنظر واحد فأشد المجرمين في رأينا خطراً وأولاهم بالضرب
على الأيدي وبالفصاص والعقاب البالغ أقصى حدود الشدة هم
أولئك الذين تخذوا الاجرام « حرفة » وتخذوا أرواح الناس
وحيواتهم تجارة ومرترقا، هؤلاء تشدد عليهم الزكير ونناشد رجال
الحكم والقضاء في مصر ألا تحركهم نحوهم عاطفة شفقة أو رحمة
لأنهم جزأرو البشرية وهؤلاء هم الذين نحب أن تتوجه اليهم جهود
الاصلاحيين والمطهرين حقاً، حتى يبقى للريف هدوءه وطمأنينته وحتى
تعيش مصر في دعة وأمان وحتى يستريح الناس ويطمئنوا على
أرواحهم وحيواتهم

أما حوادث السرقة العديدة في الريف فلقد يكون الباعث
الأقوى على معظمها هو فقر الفلاح هذا الفقر المدقع الذي عرفناه
والذي لا يتناسب مطلقاً مع الغنى الواسع العريض لأصحاب

الثروات والقصور والضياع . وقد يكون العامل النفساني عامل الأسمى
والنقمة والحسد والغضب والألم لتلك الظروف القاهرة التي جعلت
غيره يتوسد الحزب وجعلته هو يفترش المدر والحصى وجعلته يقضي
طوال حياته في السكد والشقاء واستدرار الثروة لأصحاب الارض
وجعلت غيره هائثا مطمئنا الى حياته الرغيدة الرفاهية وثروته العريضة
الواسعة التي قد يكون لم يدفع من ثمنها دافعا أو سحتوتا بل ورثها
بقية من بقايا « عصر الاقطاع » عصر المثل الاعلى في التعسف
والاستبداد واستلاب الحقوق والعبث بالناس وبحيواتهم ، هذا
العصر الذي كاد أن ينقضي من أوربا وتندثر معالمه ولكن لم يستح
أن يظهر في مصر حتى في القرن التاسع عشر قرن العلم والاختراع !
فاذا أضفنا الى كل هذا سوء سياسة الحكام ومعاملة الملاك له تكشف
لنا بعض التعليل الحق لحوادث السرقات العديدة التي يقوم بها ،
فهو يريد أن يعيش كما يعيش الناس ، وبما أن أولى الأمر حرموه
أن يعيش عيشا كريما شريفا ، عيش انسان حر يشعر بأن له
حقا في الوجود ونصيبا في الحياة ، فقد بحث عن طريق آخر ليعيش
ولو انه طريق معوج الا أنه طريق الى الحياة ، والحياة ثمينة عزيزة !!
ماذا يفعل ذلك الفلاح الذي يأتي عليه الليل فلا يجد لأولاده
ما يقدمه لهم من العشاء وقد رأهم يتضورون من الجوع ويشكون
بحر الفقر ومرارة الأسمى وهم لا يزالون بعد في سن الطراوة والرخاوة
ولم تعرف بعد عيونهم معنى البكاء أو الدمع ، وهو يعرف أن هؤلاء

الاطفال الصغار أمانة في عنقه بل فلذة من كبده وقطعة من نفسه
 وانه مسئول عن حياتهم أمام الله وأمام ضميره ، ماذا يعمل هذا
 المسكين اذا سمع أناتهم الموجهة ونفثات صدورهم المكلومة ورأى
 قطرات الدمع تسح على خدودهم النضرة عصارة لقلوب آسية ونفوس
 متألمة تطلب العيش وتستجدى الحياة ، ؟ ماذا يعمل هذا المسكين
 وقد عز عليه الطريق الشريف الى العيش وقد شح عليه اخوانه وذن
 عليه الصديق وتكر له الزمن وكسر المالك خاطره وصدع قلبه وضيق
 عليه الخناق ؟ ليس لديه إذن ليعيش وليعيش ابناؤه الصغار الاذلك
 الطريق المعوج وتلك الوسيلة الدنيئة الساقطة : السرقة

وماذا يعمل ذلك الأب الذي أتى عليه العيد وألح عليه أولاده
 الصغار في شراء ملابس جديدة لهم يزينون بها وهم في هذه السن
 المرححة الالهية بين اخوانهم ورفاقهم حتي لا يظأطوا رؤوسهم ذلة
 وانكسارا اذا وقعت عيونهم على اخوانهم في القرية من الاطفال وهم
 يلبسون جلا ليلهم الجديدة البيضاء والحمراء ويمجرون ويلعبون
 ثم أرجو أن تتصور معي أيها القارىء الكريم استعداد اطفال
 انقرى بل شبابها ورجالها ونسائها الى العيد ، وتصور معي انه يومهم
 الأكبر الفرد ، يوم راحتهم الوحيد من عناء العمل ، ويوم يجتمع الاب
 والام وحواليهما هؤلاء الاطفال والابناء الاعزاء وقد يعز عليهم مثل
 هذا الاجتماع العائلي المقدس السعيد في الايام الاخر
 ثم تصور معي أنهم يحسبون له الاشهر والايام ليخرجوا من

ديارهم في ثياب جديدة وعلى وجوههم ابتسامة البشر والتحية للعيد،
وإذا فرغت من هذا التصور ورسم هذه الصور في ذهنك وخيالك،
عد معي ثانياً وتصور أطفالاً صغاراً لم يعرفوا بعد معنى اللام ولم
يتذوقوا بعد طعماً للشقاء، وخرجوا صحيفة بيضاء إلى الوجود تجهل
ما في الكون من ألم وما في الحياة من ضنك، وما للآباء من مسؤوليات
وواجبات، وما يتحملون في سبيل أبناءهم من ضنك العيش وفداحة
الاعباء، تصور هؤلاء الصغار يأتون إلى أبيهم المسكين الفقير باكين
شاكين لأن العيد قد أوشك أن يأتي ولم يحضر لهم بعد ثياباً جديدة
مع أن غيرهم من رفاقهم الأطفال قد ابتاع لهم آباءهم من السوق
ما سيخرجون به يوم العيد رفوعي الرءوس فرحين مرحين، ثم
تصور معي أن هذا الأب الفقير ليس عنده في داره ما يأكله يوم
العيد فضلاً عما يريد أن يشتري به لأولاده مايكسو جسومهم العارية
ويرضي قلوبهم الباكية ونفوسهم الشاكية !

من القسوة كل القسوة أن نحكم على هذا الصنف من الناس
ونحن مستمسكون بمبادئ الفضيلة والصدق والامانة والشرف وما
اليها جميعاً، ومن القسوة كل القسوة بل من البعد عن الحق وعن
العدالة كل البعد أن نكون قضاة بعيدين عن الحياة وعن المجتمع وعن
البشر، جاهلين الظروف والعوامل والنواميس السرية المختلفة الغامضة
التي تقود الناس إلى اعمالهم واللصوص إلى سرقاتهم مضطرين
كارهين، وإذا تجرد القضاة وهم على كراسي القضاء من مبادئ

الواقع والحياة وطبيعة الوجود وتقدير نفسيات الناس وظروف
الاحوال وتصوير ان الناس ناس لا ملائكة ولا آلهة، ثم استمسك
القاضي بمبادئ الخيال ونظريات الفضيلة والعلماء والفلاسفة وحبس
نفسه عند نصوص القانون ومختلف الكتب والمراجع لم يسلم حكمه
من البعد عن الحق وعن العدالة وعن الروح الانسانية !!!

لسنا بذلك القول نشجع ونذيع مبادئ « المدرسة المكيافيلية »
فلقد نكون اشد الناس عدا، لهذه السبل الوضيعة من العيش، ولكننا
نبحث عن هذه البسيكولوجية الشرية في الفلاح، ونحاول جهد استطاعتنا
أن نرجمها الى مصادرها الاولى ونعثر على تعليمها الحق كما نعتقدو كما نؤمن
ولكننا نحس ونشعر أن « المبادئ الانسانية » وناموس الحياة
وبسيكولوجية الشرير والاص يجب أن يكون لها الاعتبار الأول، فاذا
نظرنا الى حادثة سرقة أو قتل فقبل أن ننظر فيهما يجب علينا أولا ان
ننظر الى « الانسان » الذي ارتكبهما لانه يهمننا أولا اصلاح
« الانسان » ودراسته لنتمكن من اصلاح الجماعة ودراستها.

ثم مالنا نستنكر هذه الحوادث من الفلاح وتقسو في الحكم
عليه وقد عرفنا جانبنا من حياته ومن ظروفه ومن تربيته ومن اوساطه!
أليس الطبيب سارقا حين يستبيح لنفسه أن يأخذ أجره من المريض
وهو يعلم جد العلم بأنه لا أمل للطب في شفائه؟ أليس التاجر سارقا
حين يستبيح لنفسه ان يكسب في صنف من تجارته ضعف وأضعاف
ثمته، وحين يغش في المكييل والموازين سعيا وراء الكسب الحرام

الذي؟ أليس المعلم لصا حين يتهاون ويفرط في واجبه نحو تلامذته
ثم لا يأنف ولا يستحي من أن يقبض في آخر الشهر مرتبه كاملا
موفورا؟ أليس المحامي لصا حين يعرف أن القضية لاشك خاسره
وأنه بالدفاع فيها إنما ينصر الباطل على الحق والكذب على الصدق
والرذائل على الفضائل والاحاد على الايمان والعهر على الشرف، ثم
لا يأنف ولا يستحي أن يمتص دماء موكله؟ وما الفرق بين الفلاح
الذي يسرق جاموسة أو بقرة ليعيش وبين الطبيب أو التاجر أو
المحامي أو المعلم الذين يسرقون الرحمة والفضيلة والكمال والامانة والوفاء؟
وأى السرقتين أفدح مصابا وأضر بالعالم وبالأنسانية: الجاموسة
أو الامانة، البقرة أو الفضيلة: ??

الآن الاول سرقة «محسوسة» وسرقة الآخرين «معنوية»
نسمي الاول لصا دنيئا ونسمي الآخرين أطهارا بررة؟ لأن الاول
شاء له قدره المنحوس أن يضبط تحت يد القانون وأن يزج في الاقفاص
ولأن الآخرين يهربون من الوقوع في قبضة العدالة نسمي الاول من
طراز السفلة ونسمي الآخرين من طراز الشرفاء؟
ولكن هكذا أرادت سنة الحياة! وهكذا توزعت الالقاب
والنعوت علي الناس! وهكذا شاءت الاقدار أن يكون بعض من
الناس لصوصا سفلة والبعض الآخر أطهارا بررة! إذن فلتكن ارادة
الحياة، ولتكن مشيئة القدر! ولتسلك كما يسلك الناس!
وليس لتخفيف هذه الحوادث في ريفنا الا العمل على تخفيف

آلام الفلاح وازالة شكاياته وضمان حياة الراحة والرغد والنور له وتمكينه من أن يعيش حراً مطمئناً الى العدالة شاعراً بالرحمة وبالحرية وبحقوقه وبواجباته، وقبل كل هذا وذاك تعليمه وتربيته لأنه لا يقوم اصلاح كما نعتقد ونري بدونهما، فلو فعلنا ذلك لاطمئن الفلاح الى عيشه الهادي، واعكف علي واجباته راضياً مستريحاً عن نفسه وعن عمله وفهم حقه وواجبه ومركزه في العلم ونصيبه في الحياة، ولرأى النور نقياً طاهراً الادخل ولاضباب ولاظلام فيه ولاشترك معنا في كل عمليات الاصلاح ونواحي الانتاج والخصب والخير !

ذكرنا قبل الآن كلمة أو صوراً عن الاجرامية الخطرة في فلاحنا وشددنا النكير وناشدنا رجال القضاء والحكومة ليقضوا القضاء الحاسم علي فئة المجرمين المحترفين « أو كما يسميهم البعض « المجرمين العاديين » والا تأخذهم فيهم شفقة أو رحمة وذلك لسلام العالم وطمانينة مصر ورخائها وأمنها، وبهذه المناسبة نود أن نقول أن معظم الجرائم في الريف يكون الباعث عليها روح الانتقام ونحن نعلم أثر وخطورة هذا الروح الفاتك ونعلم أنه أقوى الغرائز الانسانية بعد غريزة حفظ النوع . ونعلم تشبع كثير من عائلاتنا الريفية ومن الافراد الفلاحين ومن كبار العشائر والاسر، نعلم تشبعهم وخضوعهم لهذا الروح الانتقامي الفاتك الرهيب، ونعلم أنه لايزال في ريف مصر بحريها وضعيدها — وفي الثاني أغلب وأقوي — عامل العصبيات المختلفة قوياً مكيناً فتكاد لاتري جنسية من الجنائيات الريفية يخلو

الباعث عليها من « العصبية » ومن العداء العشيري ومن الروح
الانتقامي وليد الماضي السحيق وورث الاحقاد الدفينة والاحن
المحبوسة ،

وكنا قد سمعنا أن الحكومة عينت وألفت لجنة المصلحين
لتصلح ما بين العائلات والعشائر والعصبيات فيما يحدث بينهم قبل أن
يعرض الأمر علي القضاء ليقول فيه كلمته الحاسمة وذلك لتخفيف
ويلات الناس وآلامهم ولحفظ العائلات والعشائر من أن تتمزق
وحداتها وتنقسم عراها وللتوفير على المتقاضين من مال ومن جهود
ومن وقت اذا ما احتكموا للقضاء وللعمل جهد المستطاع والى حذما
على تصفية النفوس من الاحن والعداوات القديمة والسخائم الدفينة وتحل
محلها الصفاء والود والوفاق والحب ، فمالنا لا نرى لهذه اللجنة المزعومة
ولهذه اللجان المحلية الفرعية وجودا محسوسا ولا صدى مسموعا ؟
هل قدر علينا طوال حياتنا — حتى في هذا العصر — أن نقضى
أعمارنا كلها فى تأليف لجان وعمل جمعيات وانتخاب رؤساء وأعضاء
وتحضير مواد وتجهيز أوراق وعقد جلسات ثم نرهب بأذاننا أو
نفتح عيوننا ونعلى رؤوسنا لنسمع عن صدى هذه اللجان والجماعات
والجلسات ولنرى آثارها وأعمالها ومدى خطواتها فلا نسمع شيئا
ولا نبصر أثرا ؟ أتقضى أعمارنا عبيد المظاهر والأقوال والخطب ؟؟؟
لقد آن أن نبحث فى طمأنينة الناس وفى راحتهم الداخلية وفى العمل
على الصفاء والحب بدلا من الضغن والكره حتى تتآلف وحداتنا

المتنافرة وتتآزر كمثل نشاطنا الاجتماعي على خصب مصر وخيرها
وسلامها وحريتها ، فعسى رجال الحكومة يجدون لهذا الروح
الانتقامى في ريفنا ولهذه العصبيات ولهذه الشرية علاجها ودواءها
بدلاً من ضياع جهودهم وواقاتهم في القاء وعود وأعداد خطب وضمن
حياة الرغد والرفاهة والطمانينة لهم وحدهم !!

قد يبدو ما أتينا به من الصور حين تحدثنا عن النفسية المجرمة
في الفلاح قاسياً منكراً ، وقد يتصور للبعض أن هذه الاعمال التي
يرتكبها من الوحشية يمكن ومن الهمجية بحيث تنقرز منه النفس ،
ولكننا نقول لهؤلاء : مهلاً ! ورويدا أيها اللائمون والعذال !!

لماذا ننظر الى الفلاح المصري هذه النظرة القاسية ولماذا نحكم عليه
عليه هذا الحكم الذي فيه من القسوة ومن الظلم كثير ، ولماذا لا نحكم
هذا الحكم وننظر هذه النظرة الى الغربيين رسل النور والحضارة
والخير والعدالة والمدنية والعلم والكمال في هذه الارض ؟

قرأت يوماً في جريدة السياسة من مندستين لا أذكر بطريق
الجزم ، أن ستة آدميين بشريين لا وحوشاً ولا همجيين ، ستة
أوروبيين متحضرين لا أفريقيين أو آسيويين متوحشين في بولنده أو
تشكسلوفا كيا — لا أتذكر — عز عليهم الطعام في هذه الحياة
العريضة الواسعة وضائق بهم الارض على رحبها وسعة جنباتها فلم
يجدوا غذاءهم وطعامهم ولم يستمرئوا خيراً من لحم بشريين مثلهم
يجرى فيهم دماء البشر ونخفق يديهم قلوب تحب وتبغض وتميل وتحقد

ككل قلوب البشر ، ستة من الحضرة لا من البدو ، من أواسط أوروبا الراقية المتمدنة السيدة الحاكمة المتأهلة لا من مجاهل أفريقيا أو بلاد السنغال أو غابات الصين وادغال الهند حيث فارقتهما أنوار الحضارة وعزت عليها جميعا نعمة التعليم ، هؤلاء الستة البيض لا السود ولا الجراعتدوا على جماعة أوروبية مثلهم بيض أيضا وأكلوا لحومهم أحياء وتلذذوا بذلك اللحم البشري الطري ، وجري هذا الدم البشري القاني الطاهر البري حارا في دماهم وفي قلوبهم وبطونهم الغرثي الظامئة الى الدم والى اللحم ، وياليت شعري هل انتظروا نضج هذه الفرائس والضحايا وشواءها أو هل تعجلوها وأبوا أن يصبروا فالتهموها حية شاعرة طريئة مخضبة بالدم القاني الحي البري ؟ وياليت شعري بماذا شعروا حين عبثوا بهذه الارواح المظلومة الحرة أبلذة الشبع من الجوع والارتواء من الظما أم بتلك اللذة الكبرى التي تزيهم وتسكروهم . لذة انتصار المدنية الأوروبية على البربرية الآسيوية أو الأفريقية ؟

هذه « الكاينبالزم » الأوروبية نحمد الله على أنها قد ظهرت في أجلى صورها وأبين مظاهرها في أواسط أوروبا المتحضرة لا في مجاهل أفريقيا المتوحشة أو ادغال آسيا البربرية كما يزعمون ، ونحمد الله كل الحمد على أنها اختارت لظهورها على الناس القرن العشرين قرن الحضارة الذهبية والمدنية السامية الراقية أو قرن النور والعرفان كما يقولون ، ونحمد الله أيضا على أنها اتخذت مسرحها ومشهدا

في الغرب الراقى المتمدن وبين الانسان الكامل العالمي لا في الشرق
المنحط المتوحش وبين الانسان الجاهل الساقط كما يرغون ويزبدون!!
ونحن لا نذكرها هنا إلا لتسجيلها عليهم دون أن نعلق عليها
أو نبني عليها أحكاماً ونكتفي بأن نقول لهم وبخاصة « لرديارد كبلنج »
شاعر الامبراطورية البريطانية صاحب القول المأثور الخالد: « الشرق
شرق والغرب غرب ولن يلتقيا » ، ونقول لهذا الشاعر الكبير
ولأصحابنا الغربيين الذين يتبعون قوله :

تلك دالتكم علينا وهذا وسامنا الشريف نعلقه في فخار وفي
كبرياء وتيه على صدورنا الكبيرة الشريفة ليدحضوا فريتك الباطلة
وكذبكم الشنعاء

وليطامنا من رؤوسكم التي تركبونها عتوا وصلفاً ، ونقول لهم
أخيراً : لسنا وحوشاً ولنسنا « كانيباليين » نأكل لحم البشر طرياً
ونشرب دمه جارياً !!

نريد الآن ان نفي بوعدنا حيال القاريء الكريم حين تحدثنا
عن هذا الصنف من السعادة الذي يشعر به الفلاح المصري في أطواء
نفسه وفي خبايا قلبه رغم ما يلاقى في حياته من نكد وعنت وفقر
وشقاء وحرمان وجور واعتساف وعناء في عمله الطويل الشاق ورغم
بعده عن حياة اللهو والحضر والنور واعتكافه في داره وفي حقله

وفي قريته الهادئة المنعزلة عن صخب الوجود وكفاح العالم
وتطورات الحياة .

لا يمكننا ونحن نأخذ على أنفسنا القيام بالحديث عن هذا
الفلاح المسكين ، عن هذا السيد الحق لمصر ، وبتصوير حياته
ونفسيته في دائرة معلوماتنا واستطاعتنا ، لا يمكننا ونحن نقدمه
للبنيات المدنية المصرية والعالمية والشرقية بخاصة لنخلق بذلك روابط
الاتصال بينه وبينها حتي تزداد حياة مصر خصبا ونورا وأنتاجا
وقوة ، وحتى يفهم هذا الصنف المسكين من الانسان حق الفهم
فيأخذ مجلسه الحق وينال نصيبه العادل من « حقوق الانسان »
المكفولة الخالدة

نقول لا يمكننا ونحن نقوم بهذا الواجب الذي أخذنا أنفسنا
به ارضاء للحق وحده واتباعا لنداء الضمير الباطني العادل المنصف
وشعورا بالمباديء « الانسانية » الطاهرة النزهة الطيبة ، الا أن نلتم
بناحية هامة من نواحي عالمه الباطني حتي تكمل الصورة بعض
الكمال وتقرب من الحق ومن العدالة . . .

وهذا الصنف من السعادة الذي نزعمه لفلاحنا والذي هو العلة
الحقة في رضائه عن حياته النكدية وعن عيشه النقص المظلم وفي
سلواه وعزائه وهدوئه وراحة سره « كما يقولون » هو في اعتقادنا
« نعيم الجهالة » الذي نحب ان نختتم به هذا الفصل !
لا يزال الناس جميعاً يختلفون في أوجه السعادات ويتضاربون

في آرائهم عن معنى « السعادة » وسيبقى هذا الاختلاف وهذا التضارب ما بقي الانسان على هذه الارض ، ومما لاشك فيه أن لكل انسان سعادته الخاصة به المتفقة مع تكوينه النفسى وعالمه الباطنى ومزاجه الذاتى وثقافته ، ومما لاشك فيه أيضا أن بغية كل انسان في حياته إنما هي الحصول على السعادة التي يطمح اليها وتلك هي طبيعة الارادة الانسانية كما يقول « بوسويه » ، وهذا هو الباعث لكل الناس على العمل حتى الذين يسعون الى الموت كما يقول « باسكال » !! وإذا كان معنى السعادة الحق يكاد يكون كالطائر الشارد ، وإذا كانت السعادات كلها على اختلاف صنونها وتباين ألوانها لا يمكن أن نعرفها تعريفا ثابتا مرسوما أو نشير بأصابعنا وأقلامنا عليها في خرائط موضوعة أو نحصر تعاريفها ونحددناها ونحفظها كما نعمل في القواعد الرياضية والقوانين الطبيعية .

وإذا كانت « السعادة » هذا اللفظ المبهم وهذا المعنى الغامض المرن قد تزورنا بين حين وحين بدون أن نشعر بها أو نحس بوجودها بينما كما يقول « الاستاذ العقاد » ، وإذا كانت السعادة كما نراها نحن هي عدم التفكير في السعادة أو هي « راحة السر » كما يقولون فماذا تكون سعادة الفلاح هذا الصنف من الانسان المنعزل عن العالم الصاخب والوجود المكافح الحي ؟

لا يمكننا مطلقا أن نجرد فلاحنا المسكين من الشعور بصنف من صنوف السعادة ولا يمكننا مطلقا أن ننكر عليه سويعات يجلس

فيها الى نفسه مطمئنا مستريحا وقد جرد نفسه الظاهرة من العالم
الخارجي ومن شهوات الحياة ومطامع الوجود فعكف على نفسه
ليعيش فيها ويستسلم للهدوء المطلق أولفناء الحي ، اذن ففلاحنا صنف
من السعادة ولون من النعيم رغم عيشه عيشة لا تليق بكائن يحمل
شارة النبيل للمعنى النبيل السامي : « الانسان »

في تلك القرية الهادئة الساذجة الحاملة في المستقبل الغامض
المريب ، الخائفة من الغد المبهم المضيق ، المتبرمة بعسف الحاضر
ومراراته وبصنوف شقائه وقسوته ، الباكية على الماضي الداير وعلى
عهود الطفولة الناضرة ، وجلالة القدم المهيبة وقت ان كانت الطبيعة
لا تزال بكر في غضارة شبابها وفي فتوة قوتها وفي بهر سحرها وجمالها
وفتنها ، وفي تلك الحقول الخضراء المترعة بالخصب وبالخير والتي
شهدت طفولة التاريخ الانساني وشبابه وكوائمه ولم يمح جمالها
وجلالها غدر الزمن ولم يضعف من قوتها قسوة القدر ، في تلك
الحقول الشاعرة الساكرة المرددة أغاني الحب وتسبيحات القداسة
الدينية ، وتحت تلك الشمس الطيبة الخيرة باعثة الدفء والحرارة
والنور للعالم جميعا ، شمس الريف المحسنة الفاتنة الجميلة ، وفي غيبوبة
هذه الجهالة النائمة المهيمنة على ريفنا وفلاحنا هيمنة القوة والسلطان ،
وفي هذا الاستسلام المطلق لعسف السيد المالك وبطش الحاكم
والخنوع والخوف والجبن والضعف واليأس والشقاء
في كل هذا جميعا ورغم كل هذا جميعا يعيش فلاحنا كالحالم أو

كاساخر مغتبطا — شعر أو لم يشعر — بنعيم الجهالة التي يعيش فيها، فماذا يعنيه اذا كان العالم الفلاني أثبت هذه الحقيقة ووصل الى هذا الاكتشاف الجديد الذي ستتطور من أجله توجهات العلماء، أو أن النبات يشعر كما يشعر الانسان بل أكثر منه أو انه يعاني الحملات النفسية كما يعانيها الانسان وكما يقول السير جاجاديس بوز العالم النباتي الهندي الكبير أو ماذا يعنيه هو أن يعرف وأن يقول مع القائلين بأن الارض كروية أو متحركة فهل يحتاج إلا الى قطعة منها يسعد بها في حياته والى حفرة يدفن فيها بعد مماته كما يقول «جوت»؟

ليكن البعد بين الارض والقمر ما يكون، وليسكن الأرض أو الشمس هي المتحركة، وليسكن كل الكائنات الحية من أصل واحد ثم تفرعت أو من عدة أصول أو أن القرد والانسان من أصل واحد أو لم يكونا، وليكن الدين يختلف مع العلم أو لم يختلف، وليسكن الارواح خالدة أو فانية، وليكن مناجاة الارواح حقيقة أو كذبا، وليسكن لنا عقل واحد أو عدة عقول، وليسكن العالم سائراً الى الأحسن أو الى الأسوأ، وليسكن تفكير العلماء في ماهية السبرمان أو الانسان الكامل، وليفكروا كما يشاءون في اصلاح النسل أو ما يسمونه «بالوجنية» وليفكر الاقتصاديون في البحث عن تنويع الثروات وازديادها والاجتماعيون في البحث عن اصلاح المجتمع الانساني من الانتكاس الذي يعيش فيه ورجال السياسة في البحث عن تقليل الحروب وربط العالم جميعاً بميثاق السلم وتخفيف ويلات الشعوب،

وايخترع المخترعون ما يشاءون من اختراع انسان ميكانيكي يتكلم ويتحرك كما يريد ومن اختراع طريقة علمية لتجديد الشباب أو أخرى لأطالة الحياة ، وليريح الباحثون في عمر الانسانية كما يشاؤون وفي علاقة هذا الشعب بذلك وهذه اللغة بتلك ، وأخيرا ليفكر الفلاسفة كما يفكرون وليريح علماء الاجتماع والطبيعة والجغرافيا والتاريخ وفقه اللغات وعلماء الشعوب كما يشاءون ، وليسر نظام الوجود كما يسير واتسكن هناك « حقيقة » سنصل اليها يوما أو لم تكن

فكل هذا لا يجديه نفعا ولا يؤثر في حياته النفسية الهادئة المطمئنة الراضية بمجالاتها القانعة بالبعد عن حياة التفكير والعلم ، هل هو يأكل ويشرب ؟ نعم اهل هو يتحصل على جلباب يستر به جسمه ؟ نعم ، فلماذا اذن يكدر عقله في التفكير وخياله في المطامح وهو يؤمن بأن حاله ان تتغير عما هي عليه ويؤمن بالأجدوى ولا غناء من تعال النفس بالآمال والاحلام والخيالات ، ويؤمن أيضا إيمانا مكينا قويا بأن العلم ان يغير حياته ولا نظام عيشه وان يفيد قليلا ولا كثيرا بل علي النقيض ربما يضعف من إيمانه ويزيد من شكوكه ويجعله حائرا مضطربا مذبذبا بينه وبين نفسه ، فهل كان العالم سيبطل عن الحركة وهل كانت الانسانية ستقف عن سيرها وهل كان الانسان سيغيب في الثري وهل كانت القيامة تقوم واليوم الآخر يعلن ورواية الحياة تسدل أستارها علي الناس وعلى الوجود لو لم تكن الكتب في المكاتب ولو لم يكن المعلم في الصدور وفي الرؤوس وفي المدارس

وفي الجامعات ولو لم يكن هناك علماء أو فلاسفة ؟ ماذا كان يكون مصير العالم والانسان لو لم تكن كتب أو علوم أو مدارس ؟ أليس الناس كانوا يعيشون في عصور ما قبل التاريخ وفي عصورنا هذه قبل نعمة الكتب ورسالة العلم ؟

وماذا ينقص هذا الفلاح الجاهل من أسباب السعادة التي يستمتع بها بعض الناس الذين نالوا نصيبا كبيرا من التعليم والثقيف ؟ أليس يجد لقمة يتبلغ بها وتعينه على العمل في بهاره وجرعة يذهب بها ظمأه وقطعة من القماش يتدثر بها ويستر بها نفسه ؟ أليس له أب أو أم أو أخوة أو زوجة أو أبناء يجلس اليهم حين يفرغ من عمله ويبادلهم الحب والحديث والبر والصفاء ، ويجد لديهم حسن السلوى عن عنائه وكفاحه وفقره ؟ وماذا يريد هو من المال أو من المجد وهو لا يطمع في أكثر من الحصول على قوته وقوت اولاده وعلى ضمان راحتهم وتخفيف آلامهم وعلى أن يخرج المحصول مريضيا يمكنه من سداد ايجاره للمالك أو ديونه للدائن أو من سداد المصاريف التي بذلها وأنفقها عليه في أوقات الغراس والبذر ؟ هل هو يطمع في سعادة أكثر من الجلوس الى جماعة من اخوانه واصدقائه على قارعة طريق أو ضفة نهر أو شاطئ ، بحر أو علي مصطبة أو في « مندرة » أو على « جرن » الغلال أو في حانوت القرية يتبادلون الاحاديث المختلفة حول المحاصيل الزراعية وحول صنوف الوباء « والنداوي » التي تلحق بالزرع وبخاصة الفطن ؟

اليس عقله نقيا طاهرا أجوف من اضطراب العلم وتذبذب التفكير غارقا منغمسا بكلياته وجزئياته في بحر الجهالة الواسع الهاديء الحالم المطمئن الى مصيره ؟ أليس يعتقد ان العالم والجاهل معا سيتقابلان في الآخرة وسيساويان معافى مرتبة واحدة وسيكون الكبير كالصغير والعظيم كالحقير والغني كالفقير ، فلن يأخذ العالم معه في قبره أكثر مما يأخذه صاحبه الجاهل معه في لحدّه ، ولن يكون شأن العظيم في العالم الأخرى أحسن حالا من شأن الحقير ، بل يكونون جميعا كأسنان المشط لا تفاوت ولا فروق ؟ ؟

واذا كانت الشمس تشرق من الغرب او تغرب في الشرق أو كانت الحروب خيرا أو شراً أو كان جحيم الحرية خيراً من فردوس العبودية أو شرّاً منه ، فماذا يعود عليه هو من كل ذلك وهل سيؤثر على نظام حياته أو بمعنى آخر هل سيؤثر على أسعار القطن وارتفاع السوق ؟ ليسكن العالم كله ناراً حامية وحرباً زبونا ما دام سينتجج من هذا ارتفاع الاسعار في مزروعاته ! ليتجادل العلماء كما يشاءون في نظرياتهم . وليفض الجدل الى الكفاح والى الحرب فلن يغنيه فتيلاً ولن يشغل من عقله ومن نفسه وقتاً للتفكير في هذا ما دام مطمئناً الى جهالاته وراضياً بما يعلم في عزلته النائية ومصلاه الهادئة وقريته الساجية !

في هذه الجهالة السعيدة بطأ نيتها وقناعتها ، وكفافها ، القانعة بما تعرف الراضية بما هي فيه وبما شاءت لها الاقدار ، البعيدة عن

صخب الوجود وعن عراك العلم وكفاح الكتب ، يعيش فلاحنا
المصري عاكفا على نفسه مستمتعا بهذه الراحة الكبرى ، راحة
السر وبهدوء الضمير واطمئنان العقل ورضاء النفس ، قانعا بعيشه
على كفافه وشظفه وعسره ، مؤمنا معتقدا بتلك الارادة الالهية
العليا المقدسة التي تدبر حياته وتنظم مصيره وتختار له مآله ، مفوضا
أمره ومصيره اليها وحدها تحدث به كيف تشاء وما تريد ، منعزلا
عن العالم وجهوده واضطرابه وعن العلم ونظرياته وتعميده وتفكيره
وكده وبحوثه ، راضيا لنفسه بتلك القطعة من الارض الضيقة
يحصر فيها جهوده الجسمية ويعالج فيها أعماله المعيشية في هدوء وفي وداعة
وفي ايمان قوي مكين لا دخل فيه ولا ضعف ، ايمان العبد الضعيف بآله
القوى العظيم ، ايمان الفناء بالبقاء الخالد ، والجزء الأصغر بالكل الاعظم !
في هذه الجهالة السعيدة إذن وفي هذا الكهف المتعبد الخاشع
البعيد عن شهوات الناس ومطامح العباد يعيش فلاحنا سعيدا بجهالته
على الرغم من شظف عيشه وبؤس حاله ، واذا كان العلم سعادة عند
بعض الناس فالجهالة أيضا سعادة ونعيم عند البعض الآخر ، أو بعبارة
أخرى اذا كان للعلم سعادته فالجهالة أيضا نعيمها ، وهذه الجهالة كما
قلنا هي نعيم فلاحنا الذي يشعر به ويستعيز به عن سعادة العلم
ونعيم النور ! ، ولعلنا بذلك قد كشفنا الى حد ما عن هذا العالم
الباطني لفلاحنا بحسب ما يتفق والحق والواقع ، ولعلنا بذلك قد
أرضينا ضميرنا الذي لا نعمل الا بأمره وعلى هداة !!!

الفصل الرابع المرأة في ريفنا

تحدثنا في الفصل السابق عن حياة الفلاح المصري وعن خلقه ونفسيته بما سمحت لنا معرفتنا به وبما استطعنا أن نحلي صورته على وجهها الحق أو القريب من الحق للبيئات المدنية التي تجهله ، ونحب الآن في هذا الفصل أن نتحدث أيضا عن المرأة الريفية كما تحدثنا عن الرجل، لأنه إذا ذكر الرجل فيجب أن تذكر معه المرأة جنبا لجنب ليتآخي النوعان ويتآلف الشقيقان

نظن أن القارىء الكريم قد يكون كَوْن لنفسه الآن رأيا تصوريا في المرأة الريفية المصرية بعد أن وقف على ناحية من حياة الرجل الريفي المصري وخلقته ونفسيته ومركزه الاجتماعي العام ، وذلك لأنه قد عودتنا الانسانية وكذلك التاريخ أن نرى تطور المرأة يلزم دائما تطور الرجل، وإن الحكم على الرجل في أى أمة من الأمم يتبعه حتما أو غالبا الحكم على المرأة حكما متناسبا متضامنا مع الحكم الأول ، وما دمنا الى الآن قد فهمنا بعض الفهم مركز الرجل في القرى فليس بعسير علينا إذن أن نفهم بعض الفهم أيضا مركز المرأة !

نرى من الواجب علينا قبل أن نبدأ في الحديث عن المرأة في الريف أن نسجل لها في هذه البداية حسنة هي خير حسناتها وفخرا هو خير فخار في جهادنا النسوي ، ذلك هي أنها خير ساعد لرجلها وأحسن معين لشريكها كأنها تفهم حق الفهم مركز المرأة بأزاء الرجل وواجبات الزوج حيال زوجها، وكأنها تقدر حق التقدير معنى الشراكة الزوجية ومعنى التعاقد الروحي الذي هو خير ما نريده نحن أنصار المرأة

المرأة القروية على جانب كبير من النشاط الحي العملي ومن الوفاء لزوجها ومشاركتها إياه في عمله مشاركة فعلية ، فهي تخرج معه سافرة الوجه أمام كل الرجال ، لا تتحرج ولا تتقنع بقناع قد يحجب وجهها وقد لا يحجب سوءتها ، تخرج معه الى الغيط أو الى الحقل وتسحب معه مواشيه وحميره وأغنائه ، ترعاها في الحقول والمراعي وتسقيها من الترع وتقوم بأكلها وبحاجاتها جميعا ، تقف بجانبه في الغيط تساعد في عمله ، وقد تحمل الفأس مثله وتفتح بها الارض أيام الغراس ، وقد تسهر بجانبه ليلا وتكشف عن ساقها وتشمر عن سواعدها وتروي الارض ، وقد تمسك هي المحراث بجلد كريم وصبر جميل أو تحمل الردم والسباخ مع الرجل ، تجلس على النورج أيام الدراس ولا تخشي على نفسها هجير الحروقت الظهيرة ولا تشفق على وجهها السافر من أن تلفحه الشمس أو يسفعه التراب ، وعند الحصاد تراها خير معين لزوجها ، وأحيانا تجدها موفقة

عليه في عمله وأشد منه نشاطا وتوفيقا . ففي أيام جنى القطن وهو موسم الفلاح تجدها جنباً لجنب معه مشمرة عن ملابسها يجري النشاط في دمها فيزيدها نضرة وجمالاً تحت الشمس المحرقة لا تسكل عن العمل ولا تتبرم من السكد ولا تشكو من التعب ولا تتأذي من الشمس ولا من الشوك المبعوث وسط الزرع بكثرة

في كل هذه المواقف من العمل تري المرأة جنباً لجنب مع الرجل سافرة كاشفة عن وجهها لكل رجل في الغيط أو في الطرق العامة أو في دارها ، فهي لا تعرف للقناع أو للحجاب سبيلاً أو حاجة فقناعها هو عفافها ، وحجابها هو شرفها ، هو ثقته بنفسها وإيمانها بظهرها ثقة تهيم على كل ملكتها وإيماناً يتغلغل في كل أعضائها ، وماذا يجدي القناع المقنعات إذا كان وراءه نفس تلعب بالاهواء المنكرة الخبيثة ووجه تحماق فيه عينان براقتان حائرتان يكشفان عن غرض سافل وإيمان عن هوى مجرم ويترجان عن عهر مكتوم واستعداد محبوس للشهوات الوضيعة ، لماذا تلجأ الى ذلك القناع وهي تري في نفسها قدرة كافية لأن تجلس مع الرجل وتحدثه وتعامله وتسايره محتفظة بجمالها وبعفافها وبشرفها ، معتبرة إياه أخاها لا خصمها ، لانحسب إلا أن القناع على النقيض يزيد في الاغراء وفي الفتنة ويساعد على التهلك وعلى الفساد الخلقى وعلى الغواية ، ولقد أذكر هنا قول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى : « من ألزم لوازم الحجاب أنه يهيء الذهن في الرجال والنساء معا لتخيل الشهوة بمجرد النظر أو

سماع الصوت » وقال أيضا : « لاريب في ان استلفات الذهن الي
اختلاف الصنف من أشد العوامل في إثارة الشهوة »

وكل هذا متفق وطبيعة الناس وبديهة العقل والمنطق فكلما
اعتدنا علي شيء الفناء وأصبح لدينا أمرا عاديا لانأبه له كثير او كلما
بعد عنا شيء وحيل بيننا وبين معرفته ورؤيته كلما ازداد لهفنا عليه
وتقصيه ، والقناع اذن عامل كبير علي جعل المرأة مغرية للرجل وقد
يتخذ في كثير من الاحيان عند كثير من النساء للغواية والفتنة
وللتجميل ، وقد يتخذ ستارا لبعضهن يرتكبن من ورائه ما تسول
لهن نفوسهن وما يشاء لهن الهوي بعيدات عن الانظار وعن الاقويل
مؤمنات بأنهن في منزل عن الكاشحين والعذال وعن الشبهات ،
من الاحتقار للشرف أي احتقار ومن الزراية بمعنى العفة أي
زرايه أن تكون هذه القطعة السوداء أو البيضاء من القماش أو الحرير
الشفاف هي ضمان هذا الشرف وهي الحارس على هذه العفة دون
أي اعتبار للوازع الخلق ولوحي الضمير وضابط القلب !

إذا كان السفور مدعاة الى تدهور الخلق كما يريد أن يقول
بعض الجامدين الذين لا يعرفون في الحياة الا : لا ! فلماذا تكثر
حوادث السطو علي الاعراض في المدن عنها في الريف والنساء في
الاولى معظمهن وخصوصا الطبقة الوسطي متحجبات متقنعات بهذا
الستار الصفيق وبهذا « الحارس القوي الامين ؟

ليس السفور هو الذي يفسد الخلق أيها الجامدون وإنما هو سوء

التربية الحقة الكاملة الذي يخرق كل حجاب ويفتح علي المرأة كل باب من الفساد كما قال بطل الدعوة النسائية المرحوم قاسم أمين تخرج المرأة الريفية سافرة كما قلنا ومع ذلك لا يحدث شاب نفسه أن ينظر اليها نظرة خبيثة ولا هي تقربه منها وتغريه وتبادله الغمز واللمز تحت ستار شفاف بمعزل عن الانظار ، لان كل منهما يري في الثاني أخاه كل يوم فلا حاجة من التغامز والاستشفاف والبحث عن مواضع الجمال وأما كن السحر والفتنة والاغراء ، ومع كل هذا جميعاً فليس السفور مطلقاً يباعث على الغواية والخضوع لسلطان الجمال فليس أسباب الفتنة ما يبدو من أعضاء المرأة الظاهرة كما يقول المرحوم قاسم أمين بل من أهم أسبابها ما يصدر عنها من الحركات في اثناء مشيها وما يبدو من الافاعيل التي ترشدها في نفسها وكم نأمل نحن انصار المرأة ان نري كل نساءنا مثل المرأة القروية يسفرن عن وجوههن ويمزقن الذي يسمونه حجاباً ويخرجن الي العالم والى الانظار والى الحياة ليعتن في الجو المصري القوة والحركة والنور والجمال والخير وليعطرنه بورود الحق وأزاهير القداسة والجمال والسحر والفتنة ، لقد حان الحين بأن نعيش في صراحة وشجاعة وفي نور بعد أن سئمنا وعفنا العيش في الغموض والجبن والظلام ! نريد أن تخرج المرأة المصرية من محبسها المظلم وعالمها الضيق الى الفضاء الواسع الحر ، لتعرف مركزها وتقدر واجباتها وتعمل مع الرجل في اسعاده وهناءته ومشاطرته البؤس والنعمى على السواء

وتشاركه في العمل على خدمة البلاد وعلى سعادة الانسانية جميعا
وتأخذ نصيبها معه من الواجب حيال الاصلاح الوطني والبعث القومي،
نريد أن تدخل ميدان العمل والانتاج متسلحة بمواهبها النسوية
الراقية وبقدرتها على تجميل الوجود للرجل وعلى بعث القوة والنشاط
في نواحي العمل والانتاج المختلفة، نريد أن نحس بأثر « رسالة
المرأة » في الرجل وفي الحياة وان نخضع لالهام المرأة ونعمل بوحيتها!
كم تمنى ونأمل أن نرى منا نساء يعنن بألهامهن وبجماهن وبسرهن
عظمة العظماء وفلسفة الفلاسفة وأدب الادباء واختراع المخترعين
ويخلقن بهذا الالهام العالي وبهذا الايجاء القدسي ما خلقت نساء
أوروبا وأمريكا من أمثال «ماركوفي» الذي لم يخترع تليفونه اللاسلكي
إلا حينما أقعدته كل السبل عن الاتصال بحبيبتة ففكر في خلق هذا
التليفون اللاسلكي الماركوفي ليرضى به حاجة نفسه من حبيبتة قبل
أن يفكر، أن يرضى به حاجة الانسانية جميعا من نفعه واستخدامه !
نريد اذن أن يبرز نساؤنا الى الوجود الحي ويقمن برسالتهن الكبرى
ويتولين عملية البعث والخلق !!!

كم هو جميل عند ماتري قبيل الغروب جماعات النساء كسرب
الطيور حاملات جراتهن من الفخار في عجب وتيه متوجهات الى الترع
متحدثات في طريقهن بأعذب الاحاديث، وأين عذوبة الحديث في خير
من النساء ؟

تمشي تلك النساء سافرات الوجوه في حشمة وجلال، مبتسمات في

عفة وكمال ، تنسلسل أشعة الشمس الذهبية الوردية الغاربة بين سعف النخيل وأوراق الصفصاف المتدلى لتقع على وجوههن النضرة الجميلة فتكسبها حمرة الشمس الوردية جمالا لتعوضها بذلك الجمال عن نضرة النعيم وتترف الغنى ، هذه الوجوه النضرة الجميلة الناعمة تراها في بساطة جمالها وعفو طبيعتها لا تلجأ الى مسحوقات الكيمياء ولا أصباغ المدنية ، بل هي الجمال كما أراد الله أن نحبه ونعشقه فيه ، لم تفسده يد الانسان ولم تلوثه أصباغ الصناعة ، جمال الله لا جمال الانسان !

ونحب أن نقول بهذه المناسبة ونقرر حقيقة لا نشك فيها هي أن المرأة الريفية من جهة « النسائية أو الانوثة » تختلف كثيراً عن اختها المدنية ، فالأنوثة في الثانية أكثر حياة وقوة وألين رخاوة ونعومة وأشد اغراء وفتنة وسحرا ، وذلك لأنها تحسن طرق الاغراء والفتنة في حديثها وفي حركاتها وفي نظراتها بخلاف اختها الريفية فان جمالها ينقصه « الحيوية » وتنقصه أيضا القدرة النسائية على البعث والخلق والايقاظ ، وهي اذا كانت جميلة لا تحسن كثيراً أن تجعل من جمالها سحرا وفتنة للقلوب وغذاء للعقول ووحيا للأفكار كما قد تفعل جميلات المدن الفاتنات !

سبق ان قلنا ان المرأة الريفية خير شريك للرجل بكل ماتسعه معاني الشراكة ، ولكن ماذا تعمل غير عملها العملي في الغيط ؟ يكاد يكون برنامج عملها اليومي المنزلي كالآتي : — لا تلبث

أن تصحوا من نومها حتى تحتلب جاموستها أو بقرتها وتزيل ما تحتها ،
ثم تكنس دارها وتخرج حاملة جرتها لتملأها من التربة. وإن كان
لديها فراخ أو ما إليها من بط وأوز تقدم لها طعامها ، وإذا لم يحضر
زوجها في الغداء حملت سلتها وبها غداؤه وتوجهت إليه في الغيط تقدمه
له ، وعند الغروب تخرج كما قلنا إلى التربة تغسل أطباقها أو تملأ
جرتها ، ثم تعود لتطبخ للعشاء إذا كان لديها ما تطبخه ، ثم ينقضي
النهار ويعود إليها زوجها . وطبعاً إن كان لديها عمل في الغيط مع زوجها
تشاركه فيه .

هذه الأعمال البسيطة أبلغ حدود البساطة في حياة المرأة المنزلية
هي كل ما تعمله المرأة تقريباً في يومها ، لأنه من الطبيعي ليس لها
منزل كما نفهمه يحتاج إلى التنسيق والعمل الدقيق الطويل ، وفي
قترات راحتها تجلس إلى جاراتها في الحارة أو في الدار يتبادلن
الأحاديث المختلفة والحديث شجون كما يقولون فيذكرن فلانة التي
ستزوج والآخرى التي طلقت والثالثة التي أحضر لها زوجها
جلاية جديدة أو خلخالاً ثقيلاً الوزن والرابعة التي ضربها زوجها
ضرباً مبرحاً لأنها لم تبس شيئاً مما عندها ليشتري به دخاناً أو شاي ،
وهذه الأحاديث المختلفة لا تخلو دائماً من نيممة أو اغتياب ، وهذه
هي أسوأ ظاهرة خلقية في المرأة الريفية ، كثيرة الحديث ، كثيرة
الشجار لأن حدود أعمالها في المنزل قليلة ودائرتها ضيقة ، ففي أي
شيء تقضي فراغها إذا لم يكن لها عمل في الغيط ؟ في الحديث

حيث تجوز به المحبوب والمكروه والمألوف وغير المألوف ، وهي
إذا لم تجد لها عملاً تعمله أخذت تقطع الوقت بهذه الأحاديث
الطويلة الفارغة أو أخذت (تعدد) أن كانت محزونة وتلك تكاد
تكون عادة شاملة في ريفنا كما يقول استاذي الجليل الدكتور طه
حسين !

ظهر لنا إلى الآن أن المرأة الريفية خير ما تكون وفاء واحتراماً
لرجلها ، تساهم معه في أعماله العملية وتأخذ نصيبها معه في السعي
حول رزقهم وحياتهم ، ولكن ما لونها حياتها المنزلية وأعمالها الداخلية
التي هي صلب واجباتها وأولادها بالعناية والاهتمام ! كيف تدير
منزلها وكيف تسوس مملكتها لو صح أن يكون لها مملكة ؟ كيف
تقوم بتربية أولادها أو بعبارة أدق وأهم كيف تقوم بوظيفتها
الكبرى ؟

تعيش المرأة في القرى في منزلها عيشة مهملة قدرة بأوسع
معنى تتصوره من الإهمال والتفاد ، فهي كما تعلم جاهلة جهلاً فاحشاً
فلا تعجب كثيراً إذا رأيناها في منزلها صورة صادقة من جهلها
وغباها ، حتى لو أن نابليون لو كان قد رآها في دارها وحياتها لأصدر
مرسوماً رسمياً بأنكار وإبطال ما قاله عن المرأة هذا القول الخالد :
« المرأة التي تهز المهد يمينها تهز العالم يسارها » نعم ! كدنا نأمن
نحن أنصار المرأة المصرية من النجاح في ناحيتنا النسوية كلما رأينا
العدد الأكبر والغالبية العظمى بل الساحقة من نساتنا على هذا

الجانب المخجل من الجهل ومن الاهمال ، ولكننا نعال النفس
بالآمال ولا نريد ان ندع لليأس سبيلا الى قلوبنا لانا نوّمن بسنة
التطور وبقانون الحياة ولو أن تحقيق هذه الآمال فى ريفنا قد
يكون لا يزال بعيداً مستكناً فى بطون الغيب ، وبهذه المناسبة نوجه
الى القائمت بالنهضة النسوية وبخاصة الى الزعيمة الكبيرة السيدة
هدى هاشم شعراوى رجاء ماؤه محض الاخلاص وحب الاصلاح
والنهوض الاجتماعى والتعليمى والادبى لنسائنا عامة ، ان يوجهن
جانبا كبيرا من عنايتهن وجهودهن المشكورة المحموده الى القرى
والى الريف المصرى فهناك يحتم الخطر الويل على تقدمنا ، وهناك
يربض الداء السكين الذى يهدد نهضتنا ويعوقها عن الازهار والنمو
حمدنا المرأة الريفية مشاركتها للرجل فى اعماله الخارجية
وأعجبنا بنشاطها ووفائها له أبلغ حدود الاعجاب ، ولكن لا يمكننا
أن ننسى أو نغفل ان تلك الطاقه الجميلة من الزهر يتخلل ورودها
وأزهارها السم والشوك !!

تصورى معي ايتها القارئة وأيتها القارىء امرأة لا تزال يدها
ملوثة بأوحال البهائم والمواشي ثم ترضن عليها بالغسيل من الكسل
أو من قلة الماء ، ولا تأنف أن تشرع مع كل ذلك فى عجّين خبزها
أو عمل جبنها أو حليب لبنها ، تصوروا امرأة قلما تعرف أن تحوك
جلايتها أو ان تغسلها غسילה ترتاح اليه العين وتميل اليه النفس ،
تصوروا امرأة لا تفهم عن سياسة دارها وتديرها أكثر مما تفهم

من زريبة مواشيها ، تصوروا امرأة لا تعرف كيف تكون أما مطلقا
بكل ما تسعه هذه اللفظة الكريمة المقدسة ، تترك اطفالها في فسحة
الدار أو في الحارة يعبثون ويتمرغون في التراب وعلى الاكوام حيث
هناك مجمع قاذورات القرية وأوحالها من دورها المختلفة ، ولقد تلقى
الأم طفلها احيانا في القاعة أو في فسحة الدار ينتحب من البكاء
والعويل وتقفز عليه الكتا كيت والبط والفراخ تعبت بعينه وتلعب
على وجهه ثم تذهب هي لتقضى حاجة لها أو تجلس الى جماعه من
النساء ينلن الناس بالحديث والغيبة ، أما الطفل فليمت أو فليعش
(وهو وبخته) ، وكم من الاطفال عندنا كانوا يكونون نابليون أو
الاسكندر أو فولتير لو غني بتعليمهم ولو غنيت بهم أمهاتهم في
عهود الطفولة وتعهدتهم في هذه السن التي يتأثر بها الطفل بما تلقنه له
وماتوجهه اليه وتعامله به أمه ، فليس من أحد على ما نظن ينكر أثر الام في
ابنها ، وهذا نابليون يحدثننا عن أمه وعن أنها الاثر الاول والعامل
الافوى في عظمته وفيما صار اليه اسمه وصيته ،

ولكن هل ننتظر من أمهاتنا وخصوصاً في الريف ذلك الاثر
وهذا الواجب ؟

كدنا نياس حقاً أيها القائمت بشئون المرأة ولو أننا نؤمن بأن
لاياس مع الحياة كما قال المرحوم مصطفى كامل ! هنا يجثم مرض
وبيل وداء خطر كما قلنا يهدد كياناتنا القومي وأسرتنا وأطفالنا
وناشتتنا تخشى ان يفتك بمجموعنا ما لم تمتد اليه يد الاصلاح والعلاج ،

فوجهن عنايتكن قبل كل شيء الى موضع الداء الكمين الخطر
هنا ، الى المرأة القروية التي تحيا حياة كلها جور وأهمال وجهل
وقذارة نخجل ونبكي عليها ومن أجلها ، فيارجالات مصر ويا أنصار
ونصيرات المرأة ! عطفنا ولو قليلا على القرى فهناك يمكن الداء
وهناك يحتم الخطر وينتشر الوباء ، تلك وصمة كبيرة في جبين
فخارنا القومي لن يرضاها نصير للمرأة فاعملوا يا أنصار المرأة على
ازالتها لتمزقوا صحيفة عار وخزي في سجل نهوضنا القومي واصلاحنا
الشامل وأحيائنا المصري !

نريد الآن بعد ان كشفنا عن ناحية من نواحي حياة المرأة
الريفية ان نصور تلك الناحية الداخلية البحتة للمرأة في الريف وهي
الحياة القروية الزوجية

نظن أنه قد أصبح يسيرا علينا الى حد ما أن نتصور تلك
الحياة الداخلية مادما وقفنا الى حد ما أيضا على حياة الرجل ونفسيته
ومركز المرأة وحياتها في القرى ، وهذه الحياة الداخلية النفسية
قد تصح أن تكون المقياس الذي يساعدنا على تصوير وفهم الحياة
القروية عامة وبخاصة الداخلية منها تصويرا وفهما أقرب الى الصدق ،
وبهذا يمكننا أن نستجمع ونحصل فكرة ماعن هذا الجانب من
الحياة المصرية المجهول أو الغامض لمن لا يعرفه أو لا يريد أن يعرفه
والأفأين توجد حياة أغزر مادة للكاتب وأوسع دائرة لخيال

المصور وتأملات الفنان من حياة تجمع الرجل والمرأة تحت سقف واحد يعكس كل منهما على الآخر خلقه وذهنه ومذاهبه ويتبادلان الاخذ والعطاء ، وحيث تبدو فيها حسنة كل منهما وسوأتها بارزة للناقد وواضحة جلية لريشة المصور ؟

ذكرنا حين تحدثنا عن الرجل في الريف انه لا يكاد يفقه أو يشعر بمعنى « الحب » الذي قد نفقه هنا ونشعر به ونقدره ، ونريد الآن هنا أن نشرك المرأة أيضا في هذه الصفة أو هذه النفسية الشعورية . فهي بعيدة كل البعد عن حياة « الحب » غريبة عن الشعور به شعوراً سامياً نبيلاً يحرك عواطفها بأنبل المشاعر وأسمى المعاني ويرقق خلقها ويهذب كائناتها ويملاً وجودها حياة وقوة ونوراً ، هي كأخيها الرجل لا تفهم من الحب إلا ذلك الضرب الخبيث من الاستغواء الجنسي والا هذا النوع الحيواني من أسفل دركات الحب ، فهذا القلب الذي يسكن بين جنبتيها لا يخفق بالحب السامي الخالد في نبضه وفي عليائه ولا يكون رسول رحمة بالناس أو طيب أدواء الرجال حتى لو استفحل الداء وعظم المصائب

يقول « جوت » فخر الالمان « ما قيمة العالم بأسره في نظر القلب اذا ما خلا من نعمة الحب ؟ » ولكن المرأة الريفية المصرية بخاصة لا تقوم بوظيفة قلبها الذي منح لها ليخفق وليطرب وليحب ، ولذلك فقيمة العالم عندها شيء كلاً شيء وعدم كوجود ، واذا كانت حياتها هكذا من الجمود الروحي ومن الموت الشعوري ومن البلادة

في الحب وفي العاطفة فهل نتصور أن يكون لها حياة روحية بجانب تلك الحياة المادية الكثيفة تعيش فيها بقلبها ومن أجل قلبها لتجمل وجودها وتزيد حياتها خصبا وانتاجا ونورا؟ وماذا تكون تلك الحياة التي يحياها الناس لو لم تكن خصبة منتجة منيرة؟ وكيف لنا أن نصبر على مضض حياة لا نشعر فيها بحب يخفف عنا آلام تلك المرحلة من العمر ويغذو عواطفنا وميولنا وذهننا، ويخلق عبقريتنا ونبوغنا ويوقظ خامد شعورنا، وينسينا مرارة الزمن وقسوته وهموم العيش ونكدده ويجعلنا نهزأ بالشوك ونسخر من الألم وتتلذذ بالعذاب ونستحلى العلقم والصاب؟ وكيف لنا أن نعاني من هذه الحياة ما نعاني ونرضى بنكددها وبظلمها وبشقائها صابرين مرغمين ثم لا نحس بأن لنا قلوبا في حاجة إلى أن تخفق وإلى أن تحب وخلقها الله لتنمو وتنهل من نبع الحب وتزدهر وتحيا في رياض العشق، فحججنا عليها إنما هو تعطيل لوظيفتها وجود وكفران بنعم الخالق الاعظم؟ ومتى كان الحب كفرا والعشق البرى، جريمة في أسفار الله المقدسة وفي شرائع العدالة؟

ولمن اذن خلق نور القمر وندى الازهار وعير الرياحين وظلال الشجر وزقزقة العصافير ونوح الحمام وغناء البلابل ورجرجة الماء ومداعبة النسيم

اذا لم يكن للحب، واذا لم يكن للأخوين الحبيبين، الرجل والمرأة؟

إذا لم تكن حياتنا التي نحياها حياة قلوبنا وعواطفنا وشعورنا
وأرواحنا فانا لنؤثر أن تنتزع منا هذه القلوب التي لا تخفق ولا تحب
حتى لا نشعر بوجودها بين جنوبنا معطلة خامدة ذليلة أسيرة ،
وحتى لا نطأ على الرأس ذلة وصغاراً أمام ظلال الشجر ونور
القمر ورجرجة الماء !

فلنأخذ منا طائعين راضين ان عاجزت عن القيام بوظيفتها
وواجبها، فلن نريدها أبداً لعب الاطفال ولا عرائس الصبية ، ولن
نذرف عليها دمعة !!!

ونعود الآن الى موضوعنا ، اذا كان هذا هو حياة الرجل والمرأة
في الريف من ناحية العواطف والشعور أو بعبارة أدق من الناحية
الروحية فهل ننتظر ونتصور ان تكون الحياة العائلية الريفية مدعمة
بالحب قائمة على التوافق والرضى من ناحية الجنسين ؟ ولكن كيف لنا
أن نسأل هذا السؤال وننتظر هذا الجواب ونحن نرى أن معنى
« الزواج » في مصر عامة وفي القرى بخاصة لا يفهم منه أكثر من
أنه وسيلة أو بمعنى أصح معمل لتفريخ النسل كعامل الكتنا كيت ،
فالزوج أو الزوجة اذا تعطل هذا المعمل عندهما أو ابطأ في التفريخ
والتخريج صبا اللعنات على الزواج واستغاثا لله وللأولياء وللعرافين
والدجالين أن ينتظم هذا « المعمل » وأن يعاود حركته وأنتاجه ،
حتى أصبح الحرص على أنتاج هذه « المعامل » شهوة متحركة

مستبدة بأمرها لدى الكثير جداً من أبناء مصر المتزوجين وبخاصة
الريفيين والريفيات منهم .

ومن أشد المصائب والنكبات التي تتألب على هذا الفلاح أن
تجد له ما لا يقل عن خمسة وستة اولاد وقد يبلغون أحياناً ثلاثة عشر
او اربعة عشر ومع ذلك قد لا تجد في بعض الاوقات رغيها في داره ،
فاذا حدثته بوجوب تحديد النسل بحسب الرأي الطبي جلبها لمنفعته
ودراء للشقاء وللؤس عنه لوى وجهه عنك وقد يتهمك في دينك أو
في عقلك وشعورك !!

لا يفهم كثير عن الزواج في مصر الا أنه وسيلة الى اشباع
الشهوات الجسمية وأرضاء حاجات البدن والحس ، والا أنه طريقة
من طرق الاستثمار والاستغلال والتجارة بالفتيات الطاهرات البريئات
من أساليب ومن ظلم وتحكم الآباء والامهات !

ما العلاقة بين المال والقلوب والمستقبل أيها الآباء المجرمون
في حقوق أولادكم : وما معنى زواج تزيفون به ما تسمونه وثيقة
الزواج افكا وزورا ؟ دون ان يكون للزوجين وحدهما رأي في
هذا الزواج ؟ وما معنى زواج تزف فيه مجهولة الى مجهول وتساق
فيه الفتاة البريئة سوق الانعام الى من تجهله وقد تبغضه ؟

ومن المدهش حقاً أن نجد الناس هنا في مصر حتى في الريف
اذا شاءوا أن يشتروا حزمة من الفجل أو السكرات أو أقة من
اللحم أو أي صنف مما تعودوا ان يأكلوه أو يشربوه لأشباع بطونهم

وتغذية جسومهم حرصوا جد الحرص في انتقائه وتقده بين الرفض والقبول وتغليب الذوق الفني في الأكل أو في الشرب أخيراً ثم أخذوا يساومون البائع ويجادلون التاجر ليغلبوه على رأيهم، ولكن اذا شرعوا في الزواج مسألة المسائل ومشكلة المشا كل ومفتاح المستقبل الغامض اندفعوا كالمسعودين او كالعمي الذين لا يبصرون دون ان يحققوا وينقدوا كما كانوا يحققون وينقدون حين كانوا يتناعون الفجل او البقول، فكأن بطونهم أغلى لديهم وأسمى من من قلوبهم ومن ارواحهم، وكأن الحاضر لديهم أولى بالعناية من المستقبل وكأن الزوجة او الزوج لا يتساويان في السوق مع الكراث او البطاطس، واخجلاله بل واحسرتاه !!

ولقد يحضرني هنا قول المصلح الأول المرحوم قاسم أمين في هذا المعنى هذا القول المقتطع من قلبه والمنبعث من روحه، قال رحمه الله: « أرى الواحد من عامة الناس لا يرضي ان يشتري خروفا او جحشا قبل ان يراه ويدقق النظر في أوصافه ويكون في أمن من ظهور عيب فيه، وهذا الانسان العاقل نفسه يقدم على الزواج بخفة وطيش يحار أمامها الفكر »

واذا كانت هذه الحال وهذه الفكرة ستدوم فستشدد أزمة الزواج عندنا تعقيداً وقحطاً مادام هذا الزواج التجاري يهدد العائلات ويبعث الفساد في البنين والبنات ويقوض الاسرة، وكما أحب هنا أن اذكر قول « ما كس نوردو » في هذا الموضوع

قال « متى بطل النظر الى المصالح المادية في أمر الزواج وعادت المرأة مختارة في ميلها غير مضطرة الى بيع نفسها. وأصبح الرجال يتنافسون على أحرار ودها بذواتهم لا بأموالهم ووظائفهم، فحينئذ يصبح الزواج حقيقة نافعة لا ا كذوبة فاضحة كما نشاهد في عصرنا هذا وهنالك ترفرف روح الطبيعة السامية على الزوجين وتبارك كل قبلة من قبلاهما، فيوضع الولد محوطة بهالة من حب أبويه وتكون هدية يوم ميلاده، تلك العافية التي يورثها ذريتهما زوجان كلاهما مستجمع من صفات جنسه ما يحجب فيه قرينه »

ونريد الآن بعد هذا أن نتحدث عن الزواج في الريف لنكمل الى حد ما « الصورة الريفية » ، ولكن اذا أمكننا أن نقف على « الحب » عند الرجل والمرأة على السواء في ريفنا حين تحدثنا عن هذا قبل الآن فيمكننا بكل يسر وسهولة أن نتصور وأن نفهم لون الزواج وطريقته في الريف

فتى طيب وفتاة بريئة لا يعرفان من أمر بعضهما شيئاً ، وقد يكون كل منهما مجهولاً للآخر كل الجهل، هذا في الشرق وهذه في الغرب ثم يسمعان أو لا يسمعان أنهما مخطوبان وأنهما سيصبحان زوجين وسيعيشان معاً تحت سقف واحد وسيكونان عضوي شركة روحية أبدية وسيصيران رأسي أسرة

لماذا كل هذا ؟ لأن الآباء أهون لديهم طعنة الخنجر وضربة الرصاصة التي تصمى وتقتل من أن يعرضوا فئاتهم لخطيئها وشريكها

في الحياة وفي المستقبل الذي هو ملك لهما وحدهما حتى يعرف من أمرها ولو بعض الشيء وتعرف هي منه ولو بعض هذا البعض ، ولا يزالون الآن يعدون هذا فجورا دونه أي فجور وبدعة ليست بعدها بدعة أتت بها عصور المدنية المتحدثة المملحة الفاجرة ، والفقي المسكين يقبل هذا مضطرا ليوفر على نفسه عناء البحث

ومن المدهش بل من الاحتقار للعقول والنهضة الكبرى ولا مال المستقبل ولبناء عهد جديد وإنشاء جيل جديد ، من الاحتقار كل الاحتقار لمبدأ الحرية الفردية وللشعور بالذات وبالكرامة أن تبقى مثل هذه الفكرة الجامدة التعصبية وليدة الماضي المظلم في هذا العصر المتأهب للحياة في أجواء الحرية والنور والعدالة واحترام الشعور والعمل للمستقبل ، من الاحتقار كل الاحتقار « لوعي الإصلاح » ورسالة الأحياء والبعث المصري أن تبقى هذه الفكرة سائدة في أجواء الأسر المصرية وبخاصة الكبيرة منها ، وفات هؤلاء جميعاً بأنه لو سرنا على هذا النهج طويلا فسنتضي عاجلا أو آجلا على نظام الأسرة وسنساعد بذلك على جعل البيوت أديارا وصوامع للفتيات الراهبات أو على جعلها مسارح للهو الفاسد والمجون المتهم ، وسنشجع الفتيان والفتيات على الزواج ، ولكن غير الرسمي ، أو بعبارة أدق وأجلى على قضاء حاجات نفوسهم وقلوبهم التي تمنعها عنهم الزواج الاسمي المعروف ، وفيما نراه الآن أمام أعيننا كل ساعة ما يزيد في خوفنا وقلقنا على الحياة العائلية المصرية التي

نريدها منبعاً للسعادة ومصدراً للنعم والوفاء والحب ! ، ويظهر لنا أن الآباء والامهات لم يتعضوا الى الآن بما يحدث نتيجة هذه الفكرة الجامدة السخيفة في عصر لا يتفق مطلقاً وكلمة الجلود أو الظلام وأنهم لا يزالون يتجاهلون وينسون بانه لا يمكن — كثيراً — لفتى أو لفتاة يحترم كل منهما نفسه ويقدر مركزه وآماله ومستقبله أن يقبل على زواج أعمى مبنى على الخفاء والظلام بدون ان يعرف ويفهم كل منهما الآخر معرفة وفهم الشريك للشريك ، ولكننا نؤمن كثيراً بأن الايام وبأن المستقبل وبأن الحياة نفسها ستضطرمهم جميعاً على العدول عن فكرتهم التي لا تتفق والحاضر ، وسترغمهم على أن يسلكوا الطريق التي يجب أن يسلكها من يفهم الحياة ومن يدرك سنة التطور التي تهيم على العالم والتاريخ جميعاً !

ولكننا لا نريد ان نترك هذه الفرصة قبل ان نقرر هنا حقيقة نؤمن بها ونحرص على اثباتها في سبيل الحق وحده ، وهي ان هذه الفكرة التي تحدثنا عنها أثر أو جانب الجلود فيها أقل في الريف بين الطبقات الصغيرة جداً منه بين الاسر الكبيرة الريفية او المدنية ، فلقد قلنا ان الفلاح ونقصه به هنا الصغير جداً كما أشرنا الى ذلك في « المقدمة » يعمل مع المرأة والفتاة في كل نواحي العمل وهي سافرة ، أى أنه في زواجه يكون في الغالب قد رأى زوجه وهذا اذا كانت من قريته أو من عائلته وإلا فلا يمكنه مطلقاً ان يراها ، ولكن نحن نفترض هنا أنهما ليسا من قرية أو بلدة واحدة ولا

من عائلة واحدة ، أي نفترض ونتصور الحالة التي فيها حرية اختيار الزوجين محرمة تحريماً مطلقاً ، فإذا كان حال الزواج هكذا فماذا يبقى إذن من معنى الزواج الذي نفهمه هنا أو الذي نتطلع اليه ونشده ؟ بعد أن يدبر الآباء مكيدتهم في كهف الخفاء والظلام ويعزمون على الاعتداء والعبث بمستقبل فتاهم أو فتاتهم ، وبعد أن ينتهيا إلى رأي أخير وبعد جريمة الاعتداء على قلبين بريئين ، بعد كل هذا وأخيراً يعلم الخطيئان بخطوبتهما فيقابلان هذا الخبر بصمت ووجوم ولكن في أسى كمين أو حزن دفين ، ثم يؤتى بالمأذون المجرم الثالث بتلك العمامة الكبيرة التي يغش البسطاء والتي قد تطوي بين تلافيفها خير ما وصل إليه الناس من لؤم ونصب وكذب وتزوير ، يؤتى بذلك المحتال الذي يوهم الناس بأنه أرسل من عند الله ليبارك هذا الزواج فيذكرنا بذلك « البابا » الذي أرسل رسوله ليبيع للعباد « صكوك الغفران » ودخول الجنة الموعودة ويمحو سيئاتهم ويعفو عن خطيئاتهم ، فإذا ما ذكرت هذا المحتال الكذاب وذلك « البابا » النصاب ذكرت قول « روسو » : « ما أكثر الوسطاء بيني وبين الله ! » ، يؤتى بهذا المأذون ليكتب تلك التي يسمونها « وثيقة الزواج » ويوهمون الناس وأنفسهم أيضاً بأنها عقد نتج من توافق الارادتين ومن رضى الطرفين المتعاقدين ، قتل الانسان ما اكذبه وما اكفره ! هل هذه الورقة حقا هي صدي شعورهما الحق وراحة حبهما ومظهر ارادتهما ورضاهما لهذه الحياة الجديدة المليئة بالمسؤوليات

الجسام وبالأعباء الفادحة والواجبات الكبيرة ؟ هل هذه القطعة من الورق هي الرباط بين قلبين متحابين وروحين مندمجين لأعداد عهد جديد وتحقيق آمال كبيرة ؟ هل هذه الورقة هي كل ما نفهم من الزواج حتي اذا ما حبرها المأوذن وشهد الشهود كان الزواج وصدق العقد وكان عملاً قانونياً مشروعاً صحيحاً ممثلاً الارادتين حق التمثيل ؟ ما هذا العبث بالقلوب البريئة الضعيفة أمام قوة المكر وسطوة الكذب ودولة التغرير والخداع ! ما هذا الاعتدال على أجسام غضة طرية وأرواح ساجدة حاملة في آمالها وفي مستقبل نفوس طاهرة كريمة لم تعرف الحب والاحتيال ولم تتعود بعداً على الأذى والصبر على المكروه والبلاء والقوة على أساغة الكذب وتجميل النصب ؟ وهكذا تكتب وثيقة الزواج في معمل الكذب والزور وليس للخطيبين أي شأن فيها مباشر ثم يعلن للناس ويداع ان فلانة خطبت الى فلان وان ليلة الزفاف يوم كذا كأن الامر جد لاهزل وصدق لا كذب وحقيقة لا تدجيل وعدالة لا ظلم !

وبهذه المناسبة لانجد غضاضة أن نجراً برغبة تؤمن بعدالتها وبوجوبها إيماناً قوياً مكيناً لنصلح من نظام أسرتنا بحيث يساعد على تسهيل الزواج وجعله وسيلة الى الحب والى السعادة ، وتلك الرغبة القوية هي أن ننظر الى الزواج كأنه عقد مدني كأني عقد وتنمه بكل اجراءات العقود المدنية فيتم مثلها بالايجاب والقبول ، واذن فنستغنى عن هذا العدد الوفير من المآذين ونستغنى عن وساطتهم

ونأمن الطرق التي يتفننون فيها والتي ليست من الشرف ولا من الدين الحق في شيء ، ونسهل بذلك عملية الزواج ونضمن توافق الارادتين ومعرفة الزوجين بعضهما لبعض ونأمن تعسف وتجارة الآباء والامهات بابنائهم وبناتهم ، وفي هذا خير وأمن واصلاح كثير !

والآن وبعد كل هذا نريد ان نصور في حدود خطتنا التي رسمناها لانفسنا طريقة الزواج أو بعبارة أدق وأصح ليلة الزفاف في الريف عند فلاحنا المصري الذي تقصده والذي نكتب هذه الرسالة في سبيله ومن أجله وحده

في ليلة الزفاف الموعودة تزف العروس الى العريس زفافا لا يخلو من البساطة ومن الجمال الريفي أيضا ، وقبل أن يذهبوا بها الى دار زوجها ينقل عفشها عصر يوم الزفاف اما على جمال أو على (عربات الكارو) وحول العفش ومعه تذهب جماعة من أهل العروس واصدقائها ويطلقون الرصاص في الجو اظهارا لفرحهم واعلانا لسرورهم ، والنسوة في طول الطريق يغنين أغنيات الريف الجميلة في بداوتها ، وبعد ذهاب العفش الى دار العريس وبعد الاحتفال به وزفافه يحجي دور العروس فتملأ دارها بالنساء وبالمفتيات وبالاطفال الذين يركبون كل مركب خشن الى الوصول الى العريس ليروها في زينة زفافها وفي جمال هندامها ولو يصل بهم الحال الى تسلق الخائط والتطلع من ثقب الباب أو ثغرة في الجدار أو فجوة

في السقف ، ولكن قد نسيت ! قبل يوم (الدخلة) أو ليلة الزفاف هناك ليلة أخرى لها خطرها وجلالها وعظمتها وهي « ليلة الحنة » (الحناء) حيث يخضبون أيدي العروس ورجليها بعد اغتسالها واستحمامها وهناك في هذه الليلة تجتمع كل فتيات القرية وأطفالها ليتبركن من حناء العروس ، والفتاة الناهد التي زين لها شبابها وصباها وجمالها أن تفكر في الزواج تنافس أخواتها الاخريات على (قرص) العروس في فخذها قائلة لها : « قرصتك في ركبتيك حصلتك في جمعتك » ظناً منها أو أملاً لها بأنها ستصبح قريباً عروساً مثلها حيث تستمتع بشبابها وتحظى برجلها بغيتها ، وعندما تعد العروس للخروج الى دار زوجها ووداع دار ابيها التي ترعرعت فيها طفلة ثم فتاة وصبية في احضان الشباب الناعمة الدافئة ، فاما أن تحمل على جمل يغطونه بملاء حمراء في شكل خيمة أو مثلث وتجلس هي فيه ، ثم يزينون رأس الجمل ورأس المثلث ببعض الورود الحمراء أن وجدت ثم بسعف النخيل المتعالى المتراوح حول العروس وفوقها وهي في هذه الحال مع بعض أهلها أو صديقاتها ، ثم يخرج وراءها على جمال أخرى أو عربات — لو وجدت ولو كان اصحاب العرس ذوي يسار قليلاً — بعض نساء القرية وفتياتها زميلاتهن في عهود الشباب المرحية اللاهية يبلغهن الصفراء الجديدة وجلاليهم السوداء الشفافة ومن تحتها الجلايب الحمراء أو الصفراء ، وقبل أن تخرج العروس من دارها الى دار زوجها يقف أحد أخوانها أو اقاربها على بابها ولا

يسلمها لاحدا حتى يأخذ في يده ما يسمونه « البلمصة » ولا يمكنني
وانا اخط الآن هذه السطور أن أجزم أو أنكر استمرار هذه العادة
القديمة في ريفنا وبين المراتب الدنيا من مراتب فلاحنا ، واسكني
شاهدتها بعيني في بعض افراح هذا الصنف من الفلاح الذي اقصد
والذي أذيع هذه الرسالة من أجله وحده ، وأذكر اني قرأت
للمرحوم فتحي زغلول باشا وصفا جميلا للافراح الريفية وذكر
خاصا لهذه العادة التي اذكرها هنا وأصفها ، فمن المدهش اذن حقا
أن تبقي مثل هذه العادة المستنكرة في افراحنا والاتكفي المدة بين
كتابة فتحي زغلول وبين عصرنا هذا لمحو وسحق مثل هذه العادة
الريفية ، ولكننا نأمل أن تنقرض بفعل السنين والزمن !

وعندما يخرج هذا الموكب يحيون العروس بطلقات نارية ذاهبة
في الجو وتكاد تصم الآذان من الضجة ، ثم تقف جماعة من الرجال
بين حين وحين تلعب بالعصا أو النبوت وهي ما يسمونها « لعبة
الخطب » التي ذكرناها ووصفناها حين تحدثنا عن حياة اللهوفي ريفنا ،
وهذه اللعبة على بساطتها وريفيتها وبدائيتها لا تخلو من جمال ولا من
لذة فهي ضرب جميل من ضروب الشجاعة القديمة ومظهر من مظاهر
النخوة والرجولة ، ويحيي هذا الموكب أيضا جماعات من الفتيات
والنساء يزغردن في الاجواء ويغنين جماعات (CHORUS) أغاني
لا تخلو أيضا من جمال ، احدها هن تغني والاخرى يتبعنها بصوت واحد
له جماله وفيه حسنه ، وعلى هذا الضرب من السير يسير موكب

العروس حتى تبلغ دار عريسها وهناك ينتظرها العريس أو أحد أقاربه أو اخواته فيحملها بيده ويدخل بها الى الدار هذا موكب العروس ، أما العريس فمن الصعب جداً أن تجده أو تراه يوم العرس وبخاصة في عصر اليوم أو في مغربه ، فهو يحاول أن يخفي نفسه عن العيون ، وقبل اسبوع أو اسبوعين ليلة الزفاف يدعو أحد اصدقائه الخالصين المقربين اليه الى داره للاستحمام والاغتسال عنده ، فاذا كانت ليلة الزفاف الموعودة أخذ هذا الصديق الداعي ملابس العريس الجديدة من عصر اليوم تقريبا ، وفي ساعة الاستحمام يكون أهل القرية جميعا قد علموا بذلك فيذهبون الى دار ذلك الصديق الداعي ويجلسون منتظرين خروج صاحبتنا العريس ، فاذا ما انتهى من عمله وانتهى الخلاق من تزيينه وتجميله خرجوا به وسطهم رافعين الشموع والمشاعل أما على أيديهم وأما على رؤوس عصيهم الغليظة وأما في (شمعدانات) بسيطة أعدوها لذلك ، وصاحبتنا العريس في الوسط أو « واسطة العقد » كما يقول ابن الرومي ، يحمل منديلا أبيض في يده يسد به فمه وأنفه وحواليه عشيرته وأهله وأصداؤه مخضّب اليمين بالحناء ، وفي هذا الجمع العديد المؤلف من الرجال والنساء يؤتي بعض أصدقائه الذين يحسنون فن الغناء والذين وهبهم الله نعمة الصوت الجميل فيتناوبون معا غناء « المواويل » التي تدور جميعا حول الغرام والمغرمين وعذاب الحب وشكايات المحبين ودلال ذوات الجمال وما لكات

القلوب واستبدادهن وعبثهن بما يمتلكن من قلوب الرجال وبخل
الجماليات بجمالهن وقلوبهن التي لا تعرف الى الرحمة بعشاقها سبيلا ،
وبين الحين والحين تطلق البنادق في الجو بعد الفراغ من القاء
المواويل ، ثم تنثر النساء بدرات الملح على الرجال في الموكب الزاخر
خوفا من الحسد كما أظن ، ثم يستمر الموكب علي هذا النهج حتى اذا
وصل او اقترب من دار العريس ومعه أصدقاؤه دفعوه بقوة وجروا به
بسرعة وانسلوا به بين الجمع العديد الى داره وأدخلوه الى «قاعته» التي
خصصها له أهله هو وزوجه فيأخذ بعد ذلك في فض بكرة العروس
أو ما يسمونه أخذ الفلاح ، أما هم فيقفون بالباب أو خارج الدار
ينتظرون خروجه على مضض ويتعجلونه في انتهاء وظيفته ببعض
أغاني ساقطة لا تخلو من وقاحة ، فاذا ما دخل هو عند عروسه وجد
عندها جماعة من النساء من قريباته وقريباتها ، أتبن ليشهدن كيف
يقوم بهذه العملية الفنية التي هي لديهم من أحسن المشاهد جمالا
وأبهرها فتنة ، ولست أدري أى مشهد يكون مشهد فتاة بكر تفض
بكراتها على مشهد من المتفرجات المعجبات بهذا المنظر الجميل الفني
البديع كأنهن يشهدن رواية تمثّل أو لعبة تلعب ، ولست أدري
ما شعور تلك الفتاة البريئة حين ترى نفسها في هذه الحال الخزية
التي لا تتفق مطلقا وأبسط صنوف الشعور والذوق والاخلاق وحين
ترى نفسها ملقي الانظار وهدف الابصار ؟ ومن المؤلم جد الألم أن
هذه الصورة الفاحشة المخجلة المزرية لا تزال الى الآن مستعملة في

بيوت الكثيرين جدا من الريفيين ، ولا يزالون ينظرون اليها نظرة
الاعجاب والاستحسان ، وحجة هؤلاء النساء اللاتي يرتكبن هذه
الفاحشة المخجلة أنهن حارسات على عفاف العروس شهداء على طهرها
وشرفها ، ياله من اعتداء صارخ على العفة والشرف !

وإذا حدث أن العريس لم يحسن هذه العملية لطمته « الماشطة »
وأثمتته عن العروس وقامت هي بعملية فض البكارة ، مشهد مخجل
فاحش يذكرك نادما بحياتنا التي نحياها وبقائنا في هذه الوهدة
العميقة من التأخر والانحطاط ، وأخشى أن أقول : الوحشية

وفي أثناء هذه العملية المهمة يتسلق الاطفال والفتيات حائط
الدار وينظرون من ثقب أو فجوة الى هذا المشهد الجميل : مشهدة فتاة
عذراء تفض بكارتها على مرأى من جمع من المتفرجات الحارسات
الشاهدات ! ثم يخرج العريس ظافراً منتصراً من كفاح تلك
العملية فيقابله أصدقه وأهله بالقبلات والاحضان وتستقبله البنادق
بالنيران والطلقات والنساء بالتهليل والزغاريد ، وفي اليوم الثاني
تطوف جماعات من النساء في القرية جميعها حاملات قطعة بيضاء
من القماش ملطخة بدم العروس الذي هو مظهر شرفها وشارة عفافها
وحجة طهرها حتى يرى أهل القرية جميعا أمانة الفتاة على شرفها
وحرصها على طهرها ، وهن في هذا التطواف يغنين بعض الاغاني
الريفية الملائمة لهذه الحال مثل : « بيضت الشاش يا عروسة ! »

تلك صورة مقتضبة موجزة من أفراس القرى ، ويلاحظ اني

اتحدث هنا عن أصغر مرتبة من مراتب الفلاح المصري كما أخذت نفسي في كل نواحي الرسالة وكما أشرت الى ذلك في مقدمتي ، ولقد دعاني الى اختيار هذا النوع من الفلاح المصري علمي ومعرفتي بأنه يكون في الوحدة القومية المصرية الاغلبية الساحقة على حد التعبير الدستوري

ذكرنا قبل الآن أن كلا من الرجل والمرأة في ريفنا المصري ينظر الى الحب ويفهمه بنظرة واحدة وفهم مشترك وتحدثنا عن هذا اللون من الحب كثيراً وقلنا أكثر من ذلك ، قلنا أيضاً بأنه يندر جداً أن يكون زواج في الريف نتيجة لعواطف متشاركة واحساسات متبادلة وشعور بالحب والوفاق والميل ، وقلنا ان الزواج في مصر عامة وفي الريف بخاصة رجعي جداً على أقدم نظم الجمود ووسائل الرجعية ، وبأن نظام هذا الزواج على ما هو عليه في عصرنا هذا لا يتفق مطلقاً وروح العصر الحديث ولا مع ميول الناس وتوجيهات عقولهم ومشاعرهم فمن الواجب علينا أن نبحث عن علاج واصلاح لهذا النظام الذي يشوه من جمال نهضتنا ويكاد يهدد بيوتنا وعائلاتنا ويقضي على آمال شبابنا في المستقبل ويشجع على الفساد والغواية أولئك الذين يمنعهم هذا النظام الاعرج الفاسد أن يعيشوا العيشة الزوجية الهادئة السعيدة المحترمة !

واذن فقد أصبح من اليسير علينا — كما نظن — أن نتعرف الآن ونفهم ونتصور الحياة الزوجية القروية الداخليه ، فاذا كانت

هي كما قلنا نتيجة الصدف والقسر والأرغام أحيانا لا نتيجة الحب والتعارف وتبادل الاحساس واشتراك الميول والعواطف كما نفهم نحن من الزواج العصري وكما نريد أن يكون في مصر جميعا، فلا تعجب كثيراً اذا رأينا أن هذه الحياة الزوجية الداخلية لا تخلو دائماً من نضال وعداء وتجاذب الزوجين، فالمرأة هناك قل أن تنجو من الضرب والاهانة والتعذيب لأتفه الاسباب وأبسط البواعث تصور معي أن الرجل قد يوسع امرأته ضرباً بالنبوت وما أدراك ما النبوت ! وذلك لأن احدى نساء القرية قد أتت تشكوها الى زوجها، أو لأنها تحفظ وتدخر لديها بعض نقود له فيحدث أن تمتنع أحيانا عن أن تعطيه ثمن لفافة تبغ ابقاء على نقوده من الضياع وتوفير الشراء وقضاء الحاجات المنزلية الاساسية الأخرى، تصور أن الرجل في ريفنا يجد في مناداته لزوجته باسمها عاراً له وتنقيصاً من قدره ومن سيادته وسلطانه وكرامته فلا يناديها دائماً إلا بهذا النداء العجيب المتكبر الصلف : يا بنت !

واذا ما جلس الى اخوانه أو أصدقائه في مجلس وأراد أن يذكر زوجته فتأني عليه النعرة والكبرياء الا ان يقول : الاولاد أو العيال خوفاً من أن يقول زوجي أو حرمي أو ما اعتاد المتعلمون المستنيرون أن يقولوا !

وتصور أيضاً أنه اذا استولد بنتاً وجم وعلت وجهه الكآبة والأسى لأنه كان يريد ولداً ولا أنه ينظر الى البنت والى النساء عامة

نظرات احقار وازدراء وأنقص ، ولأنه يرى في النساء عامة رأي صاحبنا « المعري » : « باعثات ركابك في مهالك مقمات » « فوارس فتنة أعلام غي » « يلدن اعاديا ويلدن عاراً » « الا ان النساء جبال غي .
بهن يضيع الشرف انتليد »

بمثل هذا المنظار الاسود الظالم ينظر فلاحنا الى المرأة ثم تصور معي أخيراً حياة زوجية تستفتح صباحاً عند مطلع الشمس الخيرة المحسنة بأبغض الحلال الى الله ، بالطلاق كما قال النبي الكريم ، ولا يستحي الرجل ولا يتعفف ولا يتحرج أن يقسم بالطلاق مرات ومرات ثم يستأنف حياته الزوجية كأنه لم يفعل شيئاً يمنع هذا الاستئناف بل يبطله ويبلغه وفي هذا يساعده ذلك النصاب الكبير أمس البلاء كما قلنا : المأذون نظير رغيفين أو دعوة عشاء أو كيلة اذرة ! كم من الفلاحين من اذا حادثته عن أي شيء أقسم لك في الحال بمن الطلاق مرات ومرات في هذر وجده ، في عمله وسمره في سلمه وحر به ، في حديثه وغير حديثه بطلب وبغير طلب ، وامراته المسكينة قابضة في دارها أو مزاولة أعمالها في حقلها أو في بيتها تجهل كل شيء عن زوجها ، تجهل انه يبيعها ويهدمها ويقضي على أولادها ويتصرف فيها وفي ابنائها الصغار كيف تشاء أهواؤه وتريد جهالاته تجهل انه يعيش معها في حرام يبيغضه الله ويمقتة أو بعبارة أدق وأجلى تجهل انه يعيش معها لا في زواج حلال بل في زنا محرم فاجر وكل

ما ترتب على هذا الفساد والحرام فاسد حرام فساد الفرع من الاصل
والبناء من الجدار !

المرأة في القرى اذن — كما لاحظت بعيني — لاتعامل من
الرجل أكثر مما تعامل المشية والسوائم ولا ينظر اليها أكثر من
أنها «معمل» لتخريج الاطفال كعامل السكتا كيت الذين يعيشون
في قذارة وبيئة أهون وأحب لدينا ان نراهم موتي أو لانراهم مطلقا
من ان نراهم أحياء على هذه الصورة المخجلة القذرة المبكية ، ولا ينظر
الى المرأة أيضا أكثر من أنها « وعاء » يصب فيه الرجل لذاته
وشهواته الجسمية الزائلة الفانية ! أترضى هذه الحال المبكية ، والمخجلة
معا أنصار ونصيرات المرأة !

ومن المؤلم أيضا بل من المبكي حقا ان الفلاح المصرى قد
يهون عليه أحيانا ألا يكذب على ولي من الاولياء الصالحين ثم
يلجئ لنفسه ولدينه ولضميره أن يكذب على ربه وخالقه ! نفسية
غامضة غريبة لا تخلو من العجب ولا من الامى والاشفاق الكثير !
وهكذا تكون حياتنا الزوجية الريفية الداخلية القائمة كما قلنا
على الصدف حيننا وعلى الجبر والعمى حيننا آخر مع ان النبي عليه
السلام أشار بوجوب معرفة كل من الخاطب والمخطوبة كل ما يهمهما
معرفته قبل الزواج فقال « اذا خطب أحدكم المرأة فأن استطاع ان
ينظر منها الى ما يدعوه الى نكاحها فليفعل » وقال عليه السلام للمغيرة
حين أخبره بأنه خطب امرأة : « انظر اليها فانه أحرى أن يؤدم

بينكما» ولـكننا لا نريد ان نفكر ولا أن نبحث ولا أن نسير في حياتنا حتي كما كان يسير من قبلنا فضلا عن أن نساير عصرنا ومقتضيات زمننا !!! الآن وقد تبين لنا مركز المرأة في القرى بأزاء الرجل ومعاملة الرجل ونظرة اليها، وبعد ان تبين لنا أن هذا التعاقد الجنسي من الرجل والمرأة تعاقد باطل قانونا في أغلب الأحيان وشرعا ودينا أيضا لأنه لم تراع فيه مطلقا شروط التعاقد الاولى التي من أهمها رضا الطرفين المتعاقدين وتوافق الارادتين المشتركتين في العقد، ولأنه شرعا ودينا باطل لما يرتكب فيه وباسمه من أمور ينكرها الشرع ويمقتها الدين كتلك الكميات العديدة من القسم واليمين دون احترام لدين ودون خوف أو رقابة من الخالق صاحب الاديان جميعا !

إذا تبين لنا كل هذا فهمنا وتصورنا مقدار خلل الحياة الزوجية في الريف والفساد السائد فيها، وأمكننا بذلك فهم العلاقة النفسية الباطنية بين الزوجين هناك : زوجان مات في كل منهما تقريبا الشعور بالحب اللهم إلا في العلاقات والاحوال الجنسية ، زوجان يعيشان عيشا استبداديا مطلقا يرى الرجل نفسه هو الحاكم والسيد المطلق الباطش بأمره ونفوذه حيث يريد ومتى يشاء، والمرأة المسكينة تري نفسها مجبرة لأن تخضع وتستذل لرجلها . فلقد تربى فيها روح الاستكانة والخضوع للجبروت وللذل من الرجل ومن غيره فأصبحت تخاف رجلها وترهبه بدلا من أن تحبه وتحترمه ! فهي جاهلة مسكينة

وهو جاهل مسكين والمرأة الجاهلة كما يقول المرحوم قاسم أمين
« تجهل حركات النفس الباطنة وتغيب عنها معرفة أسباب الميل
والنفور فاذا أرادت ان تستميل الرجل جاءت في الغالب بعكس
ذلك »

ولذلك هي لا تعرف مطلقاً أن تتقرب منه وتتجنب اليه وذلك
لجهلها بهذه الاساليب أولاً ولروح الخوف والنفور والجن الذي
غرسها الرجل فيها ثانياً ولكنها قد تحسن هذه الاساليب احياناً الى
حد ما اذا كان للرجل زوجات أخرى معها وهذا منتشر بدرجة
مخيفة مريعة في الريف رغماً من فقر الرجل المبكى وشقائه المفرط
ولكن لا تدهش كثيراً فتمن المرأة هناك رخيص جداً وأقصد
بها المرأة التي تقابل الرجل الذي اقصده أيضاً والذي نوهت عنه في
كثير من صفحات هذه الرسالة ، لا تدهش اذن اذا علمت ان
الرجل قد يتزوج امرأة بجنيته واحد أو ببضع ريالات حبا في الزواج
أو حبا في النسل

ففي هذه الحالة وحدها اذن قد تتقرب المرأة من الرجل وتتودد
وتتعلق اليه ليعينها على الزوجة أو الزوجات الاخريات وليهبها حبه
وقلبه دونهن جميعاً ، وكثيراً ما تنشأ المعارك وتحدث الشتم بين
هؤلاء الضرائر استجلاباً لحب الرجل ، لا ! شهوات ولذات الرجل !
والمرأة التي خلقت لتبعث في البيت جمالا وحياة وسحراً
ولتكون جنته أو ملاكه ، ولتجمل لرجلها حياته وتخفف أو تزيل

عنه همومه واعبائه وتشاركه لا جسما فقط بل قلبا وشعورا وروحا
واحساسا في نعمه وفي بؤسه في تعبته وفي راحته ، وتذهب عنه
السآمة والضجر والتعب بما تسري عنه وتلاعبه وتداعبه بأناملها
الناعمة الدافئة القطيفية وبأنفاسها الحرة المتصاعدة من قلبها المحب
الرحيم النابض وبأحاديثها العذبة المعطرة المتأرجحة التي يصفها الشاعر
في قوله :

فمن لؤلؤ تجنيه عند ابتسامها ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه
وبنظراتها ولحاظها المسترخية الفاترة النافذة الساحرة ، ولتربي
اولاده تربية صحيحة قوية ولتخلق فيه حب الحياة وروح العمل
والكفاح

مثل هذه المرأة تكاد تفارق ريفنا وتكاد تكون مجهولة هناك
كل الجهل ، اذن فماذا تكون وظيفه المرأة اذا لم تكن لزوجها ملاكا
يحرسه وطيبيا يعالجه وفنانا يجمل له الحياة ووحيا يلهمه القوة وحب
العمل وقلبا متما لقلبه وروحا أليفا لروحه ؟ واذا كانت المرأة في
القرى تكاد لا تفهم ولا تقدر واجباتها نحو وظيفتها بأزاء الرجل
وبأزاء البيت التي هي ملكته وبأزاء اولادها ، واذا كان الرجل
أيضا من هو : لا يفهم واجبه نحو المرأة ولا يعترف لها بمركز
محترم سام ولا يقدر وظيفتها في الحياة ورسالتها في العالم ولا يفهم لها
وجودا ذاتيا مستقلا محترما في حدود عملها ووظيفتها ، فلا ننتظر

مطلقاً أن تكون حياتهما الزوجية سعيدة هنيئة كما نفهمه ونحسه
حين نتصور ونذكر السعادة والهناء !

آمال ورغبات

الفصل الخامس

وما هذه الآمال والرغبات إلا آمال ورغبات شاب من أبناء
الريف شهد بعينه هذه الحياة الشقية البالغة أقصى مراتب الشقاوة
التي يعيشها الفلاح المصري ويحيها هذا المسكين الطيب ، فلم يشأ
أن يكتفم آلامه ويسكت أنينه بل رأى أنه من الواجب ومن الوفاء
للوطن وللقرية ومن الاحترام لنفسه ولضميره أن يجار بالثورة على
هذه الحياة التي تتنافى وكل مظهر من مظاهر الانسانية أو الرحمة في
عصر يقولون كثيراً ويرددون انه عصر الحريات وعصر الانسانية ،
وما هذه الآمال والرغبات الا مزيج من الرحمة والاشفاق والألم
والأمل والشعور الحق بالقومية والصرخة الحارة للألفة وللعزة
الوطنية والدعوة المبتعدة من الجسم ومن الروح ، المتقطعة من اللحم
ومن الدم ، الى الهدم ثم الى الانشاء ، فلقد آن الأوان بأن نعمل

معاول الهدم والتقويض في كل ما يؤخرنا في سيرنا ويتخذ الغريون
سبة ووصمة لنا، وفي كل مالا يتفق وصور حياتنا المدنية الغربية
المتحضرة، وفي كل ما يكون نشراً أو ضعفاً أو اضطراباً في لحنا
القومي واغنيتنا الكبرى الوطنية، نعم أن الأوان بالآ نشفق على
قديم لمجرد أنه قديم يخلع عليه القدم صبغة من القداسة وبالأ نجهن
مطلقاً في العمل على تغيير وجهات جميع مرافق حياتنا تغييراً كلياً
شاملاً، تغييراً لا يفصل بيننا وبين الشرقية بصفة عامة والمصرية
بصفة خاصة التي نمتزج بنا لحماً ودماء والتي هي في ماضينا وفي حاضرنا
وفي مستقبلنا أيضاً والتي هي في عقولنا وفي قلوبنا وفي أرواحنا وفي
أحلامنا وفي نزعاتنا وفي ثقافتنا وفي أعصابنا وفي كل خلية حية من
خلايا وجودنا، تغييراً يبقى لنا الطابع المصري الجميل في مصريته
الفرعونية ومصريته العربية ومصريته الحديثة المنصفاة من هذه
الحضارات والثقافات الفرعونية واليونانية والرومانية والعربية واللاتينية
والسكسونية، والمتمزجة المتفاعلة بهذه جميعاً

نعم! لا نريد أن نتغير كأمة لها من حضارتها الأولى ومن
هذه الحضارات جميعاً مجدها وعزها المقدس طفرة واحدة ونقطع
كل صلتنا بالماضي الحبيب الينا المتغلغل في كل أعصابنا وحواسنا،
بل نريد أن نوفق ما استطعنا بين الماضي والحاضر والمستقبل ليتألف
من هذا جميعاً لحن جميل واحد للفخار المصري وللقومية المعربية، نريد
أن تكون « مصر » التي وسعت أرضها الخصبة ونيلها الخالد كل

الحضارات الانسانية جميعاً واتي غدت من تربتها ومن مأها ومن مماها ومن تاريخها كل الثقافات القديمة العريقة في القدم ، نريد أن تكون « مصر » هذه لا تتأخر في عصرها الحديث وفي نهضتها الكبرى عن ان تستأنف غذاءها والهامها ووحيا هذه الحضارات والثقافات الحديثة العالمية ، وان تؤدي رسالتها الكبرى الى خدمة العالم جميعاً مؤتلفة من فن الشرق ومن علم الغرب !

إذن ليس لنا مناص وقد اصطنعنا وسرنا على نهج الحياة الغربية الراقية من أن نهدم كل مالا يستطيع البقاء وما يعوقنا عن أن نكون أمة المستقبل الفاخر كما كنا أمة الماضي الخالد ، وما يؤخرنا عن أن نبعث من جديد مصر العلوم والفنون ، مصر الحكمة والفلسفة ، مصر الحب والخير ، مصر الحق والجمال ، مصر السلام والجلال ! واذا كنا في حاجة الى الهدم لنبدأ في عملية الانشاء فنحن أحوج الى ان نهدم نظام حياتنا الريفية رأساً على عقب كما يقولون ، فان وصمات العار التي تلطخ فخارنا القومي وسخريات الغريبيين التي يتفككون بها عاينا وعوامل التأخر والجمود التي تعرقل خطواتنا الواسعة في الاصلاح وفي البناء ، كل ذلك جاثم لنا في الريف وملازمنا أبداً في حياتنا الريفية

لقد وقف القارىء على صورة بسيطة من حياة فلاحنا وآلامه وضروب أرهاقه وغبنه ، وعرف ان هذا الفلاح النشط العامل سيد مصر حقاً إنما يعيش عيشة خشنة قدرة كلها التعسف والاهمال والفقر

والجهل والجهود والحرمان والظلام رغم ما يسكب المسكين من دمه
ويقتطع من قلبه ويريق من عرقه ليطعم أبناء مصر وليكسوهم ولينمي
ثروتهم بينما هو يتقلب على أشواك الخصاصة والمسغبة وبينما هو يمشي
بين الناس نصف عريان لا يمتلك الا اللباس الذي يستر به جسمه ،
وبينما هو في معظم الليالي يبديت طاويا جائعا هو وأولاده المساكين
وزوجه الوفية ، ورغم حرمانه كل حقوقه في الحرية الحققة والتعليم
وضروب السلوى والعزاء واللهو وحرمانه حتي حق ابداء شكواه ،
ورغم عبث الحكام واستغلالهم لجهله وفقره ورغم تحكم الملاك فيه
وفي أولاده ، ورغم تجاهل رجال الحكومات إياه كأنه ليس هو
الذي على أكتافه يصلون الى ما يصلون من كراسي الحكم ومراتب
الجاه ومنازل السطوة والسلطان !

لا نريد الآن ان نعود الى تصوير تلك الحياة الشقية لفلاحنا
المسكين فأنا لنحسب أن فيما أوردنا في الفصول السابقة وفيما حاولنا
تصويره من حياته كما نعرفها وكما نشاهدها وكما نشعر بها وكما نعتقد
ونؤمن أنها الحق نحسب أن في هذا الكفاية النسبية لمن لا يعرف
شيئاً عن الفلاح المصري وعن لون حياته التي يحياها في عصر النور
والحریات خصوصا إذا لا حظنا وتذكرنا أننا لا نريد من هذه
السطور اذاعة رسالة علمية دقيقة ، فليست هذه السطور كما قلنا في
« المقدمة » الا شعوراً حرصنا على تصويره كما هو دون تصنيف

أو ترتيب والانداء باطنيا أحسننا بقوته وسمعنا صرخته فقمنا بتبليغه
في سبيل الواجب وفي سبيل الضمير !

والآن ، ترى ماذا تكون تلك المكافأة وهذا الاعتراف
بالفضل وبالجميل من حكوماتنا ومن ملاكنا وأغنيائنا لهذا الفلاح
المصري النشط فخر الصبر والنشاط والعمل في العالم جميعا ؟ أتدري
ماهي هذه المكافأة وما هو هذا الاعتراف بالفضل وبالجميل ؟ :
تعسف وحرمان واستغلال وارهاق وإهمال واحتقار ! وهكذا يخرج
المسكين ثمار الأرض للملاك ثم يحرم هو كفاية عيشه ورزق
أولاده ، وهكذا تبني المدارس من غرس يده ودمه ومن عرقه ومن لحمه
ومن شقائه ومن نشاطه ثم يحرم هو التعليم فيها كالشمعة التي تنير
للناس لتنطفئ ، هي ، هكذا تخطط المدن وترصف الشوارع وتنار
وتزدان علي حسابها ومن جيوبه بل من قلبه ثم يحرم هو داراً نظيفة
وعيشة راضية وحياة محترمة موفورة انسانية !!!

يا رجال الحكومة ويا أصحاب الأرض والطين ! لقد آن لكم
أن تدخلوا الميدان وأن تعملوا بجهد للإصلاح وللإنشاء ، فلئن صبر
الفلاح طويلا في العصور القديمة على الضيم والحرمان والاهمال فلن
نضمن ولن تضمنوا هذا الصبر وهذا السكوت في هذه العصور ولئن
كانت سياسة الاستعباد قد حالت بيننا وبين الإصلاح المرجو في العصور
الماضية فلقد زالت هذه السياسة ولو ظاهريا وأوشكت ان تنفض يدها

من مصالحنا الداخلية الخاصة وأصبحنا الآن مسئولين وحدنا عن
نواحي الضعف والاهمال والفساد والخلل في حياتنا الاجتماعية

جودوا يارجال الحكومة على الفلاح المسكين بالتمجول في
القرى والعزب والكفور وتنازلوا بالاستماع الى شكاياته التي يبعثها
فقره وحرمانه وتكرموا بالنظر والتأمل والتفكير في حياته فسوف
تجدون معنا أنه من العار كل العار بل من الظلم وأي ظلم أن يعيش
هذا الصنف من الانسان العامل النبيل الطيب الكريم هذه العيشة
الويئة التي نعرفها وتعرفونها والتي تحرك عيوننا بالدمع السخين
وتفجر قلوبنا بالرحمة والشفقة عليه والتي لا نشك مطلقا في أنها
تحرك فيكم وتفجر ما تحرك فينا وتفجر وتدعوكم الى نسيان مراكم
ومناصبكم وجاهكم حينما لتفكروا في وضاعة وحقارة ومسكنة هذه
الحياة التي يحياها صنف مسكين ضعيف من الانسان تربطكم به
رابطة نبيلة مكيئة مقدسة ، لارابطة الوطنية وحدها ، ولارابطة اللحم
والدم وحدها ، ولا رابطة اللغة والدين والاحساسات والآلام
والآمال وحدها ، بل رابطة أسمى وأعلى وأقدس من هذه الروابط
جميعاً : رابطة الانسان بالانسان ، رابطة الأخ بأخيه !!

وليس مانع من هذا من الآمال والرغبات سوى مطالب متواضعة
تدفعنا الى البوح بها والى اذاعتها العدالة البشرية والمباذير الانسانية
التي لا نشك مطلقا أنها سوف نجد لها بين ابناء هذا الوادي الطيب
الخصيب المبارك أنصاراً وأعواناً ، إن لم يكن يدعوننا اليها شعورنا

القومي وإيماننا الوطني ولا نشك مطلقا في أنكم تشعرون معنا هذا الشعور وتؤمنون معنا هذا الإيمان !

وقبل أن نبدأ في ذكر هذه الرغبات نرى من الحق ومن الواجب علينا أن نسجل حقيقة لا مناص لنا من الاعتراف بها بين سطور هذه الرسالة ، وهي تلك المحاولة المبدئية التي توجهت نحو التفكير في شؤون الفلاح المصري والريف المصري ، تلك المحاولة المشكورة التي أهدتها إلينا حياتنا النياية والتي تشجعنا على التفاؤل وعلى المضي والسير في واجبنا هذا الذي أخذنا نفسنا به ليلم السعي وتنجح المحاولة ونرى ريفنا وفلاحنا كما نحب أن نراها !

وإذا شكرنا هذا السعي الشريف المبرور إلى اصلاح العامل المصري والذي أخذ مظهره في بناء حي جديد خاص بالعمال وفي تشريع خاص يحمي حقوقهم أزاء وتجاه أصحاب المصانع وأصحاب رؤوس الاموال ، نقول اذا شكرنا لحياتنا النياية ولحكومتنا هذا السعي المبرور وهذه الحركة المباركة بخصوص حماية وتنظيم حياة وحقوق فئة عاملة نشطة حية هي احدى فئات وبنيات ودعامات حياتنا الاقتصادية وثروتنا الانتاجية القومية وهي فئة العمال مجارة لتلك الحركات الشريفة القومية التي قامت بها جميع دول أوروبا وأمريكا المتحضرة ، نقول اذا شكرنا لها هذا فكم ننحي عليها باللائمة لأنها غنيت بطائفة كبرى من طوائف الانتاج وأهملت طائفة قد تكون أهم وأكبر وأخطر في كل نواحي ثروتنا وانتاجنا وهي طائفة الفلاحين ، خصوصا اذا راعينا أننا بلد زراعي

واننا نعلم في كل ثروتنا ومرافق حياننا المختلفة على الزراعة وعلى
 الفلاح بمعنى أدق ، فكان يجب أن نبدأ أولا بطبقة الفلاح ثم طبقة
 العامل ان عجزنا عن البدء بالطائفتين معاً ، وإذا كان العامل المصري
 سيوفق في القريب الى تشريع يحمي حقوقه تجاه اصحاب الأعمال
 ورأس المال ويحدد أجوره وساعات عمله حتي يكون بمنجاة من استغلال
 واستبداد اصحاب المصانع ، ثم الى سكنى مريحة هنيئة في حي خاص
 وفي نظام جديد يتفق ومقتضيات الحياة الجديدة وروحها ونزاعها ،
 فكم هو أحرى بالفلاح المصري فخر مصر وسيدها بلا نزاع أن
 يكون له تشريع خاص يحميه من ظلم ومن استبداد واستغلال ملاكه
 اصحاب الارض والطين وأن ينص صراحة في هذا التشريع على
 وجوب تحديد حد أقصى للأجبار حتي لا يستغل الملاك جهالة
 الفلاح وسداجته وفقره وحتى يخافوا الله فيه وفي أولاده وليكن هذا
 التحديد كما أشار السير « ويليم ويلكوكس » وخبرته بالشئون
 المصرية وبشئون الفلاح المصري خاصة لا يمكن نكرانها أو الجدل
 فيها .

أشار هذا الرجل الانجليزي مدفوعا بالعامل الانساني النبيل
 لا العامل الجنسي بوجوب عدم زيادة قيمة الاجبار عن خمسة أو
 ستة امثال الضريبة المفروضة على الارض وهي تلك الضريبة العقارية
 التي تختلف قلة وكثرة

فكم ينقذ الفلاح المصري من وطأة الملاك الذين لا يهمهم

إلا أن يسدد لهم المسكين قيمة الايجار سواء أكن من جيبه أم من دمه اذا سن تشريع خاص للايجارات يحمي الفلاح من مظالم الملاك ويمكنه من أن يعيش حياة متوسطة معتدلة انسانية محترمة ، ويحدد هذا التشريع حداً أقصى للايجار وتحدد عقوبة أو غرامة لمن يخالفه ، فاذا فعلنا هذا — ونأمل أن نفعله قريباً — هذبنا انسانية الغالبية الساحقة منا وخففنا عليها بعضاً من ارزائها ومضائبيها ومظالمها وأتحننا لها الأمل في حياة جديدة مريحة واسعة عادلة !

وإذا كنا قد فكرنا في شئون العامل وشرعنا في وضع تشريع خاص له ينظم حياته ويحمي حقوقه فأولى بنا أن نفكر في شئون الفلاح المصري وأن نشرع في وضع تشريع خاص له اسوة بأخيه العامل ، وأن نضع أيضاً نظاماً خاصاً لسكنائه كما نريد مع أخيه العامل ، ولقد آن لنا ونحن في عصرنا هذا وفي عهد أحيائنا القومي العام أن نضع لائحة خاصة لنظام البناء والسكنى في الريف فمثلاً نشترط على من يريد بناء دار له ألا يخرج على قواعد تلك اللائحة بأن يبني داره بالشكل وبالنظام وبحسب الشروط المدونة في تلك اللائحة وان خالف ذلك فيعاقب بعقوبات مختلفة .

ولهذا الغرض نأمل كل الأمل أن تكون لجان خاصة في الدوائر الحكومية يكون من اختصاصها النظر في هذه المسألة الهامة وأن يعين من الفنيين والمهندسين في كل مركز من مراكز المديريات يباشر كل واحد منهم ويراقب في حدود مركزه واختصاصه عملية

البناء بهذا النظام الجديد وهو الذي يضع لهم الرسوم والتصميمات التي يجب عليهم أن يبنوا وفقا لنظامها وقواعدها وتكون هذه الرسوم واحدة متجانسة في كل ابنية القرية.

إذا فعلنا هذا — وأملنا كبير في فعله — جعلنا من القرية المصرية وحدة شكلية متجانسة تريح النفس وترضي القلب والذوق وتذكرنا بأن في حياتنا المصرية الريفية نظاما وذوقا وتجانسا ولكنني نسيت ! ليم حياتنا الريفية جمالها كما ينبغي يجب أيضا أن يسن في تلك الألائحة على وجوب القاء الردم والسباخ وما اليهما من أوحال وقاذورات في الجهات القبيلة من القرى لا من بحريها وبعيدا عن الدور بمسافة تضمن عدم وصول رائحتها للاهالي نظن ألا مبالغة فيما نقول ولا اسراف فيما نطلب فإنه قد وجب علينا كأمة تشعر بحيويتها وبكرامتها وبذاتها ان ننظم كل مرافق حياتنا وخصوصا الداخلية منها، ولا نظن شيئا هو في أشد الحاجة الى هذا التنظيم مثل حياتنا الريفية التي بقيت على حالها الى الآن كما كانت في عهود العرب والأتراك والمماليك ومن اليهم !

من واجبنا جميعا حكومة وشعبا ان نجعل من ريفنا جنات خضراء نخرج اليها اذا تكدست على قلوبنا هموم الأسمى أو أضعفت المدن وملاهيها من ايماننا ، من واجبنا جميعا ان نسير بالريف كما سرنا بالمدن وبكل نواحي الإصلاح التي سرنا بها والخطى التي خطوناها ، حتي لا نهرب بذلك من بلادنا الى ربوع الغرب نبحث

هناك عن السلوى ونتفقد العزاء والراحة واللهو ، ومن واجبنا جميعا أن نحجب الينا ريفنا الذي درجنا على أرضه وبين ربوعه الهادئة البريئة بأن نجمله وبأن ننظمه ليكون دائما جميلا أمامنا حبيبا الينا عزيزا علينا ، فانه في حالته الآن وبصورته التي هو عليها في النظام القديم الذي شهد عصور الاقطاع وعصور السخرة وعصور الاستبداد ينفر كثيرا منا عنه وقد تربينا في أحضانه بين حقوله وقنواته وسواقيه وأجرانه ، وقد نقشت ذكرياته الحبيبة الخالدة في رءوسنا وفي صدورنا وفي قلوبنا ونمت مع عقولنا وخيالنا وأحلامنا ، اذ ماذا نشعر الآن في هذا العصر وريث وريث تلك العصور القديمة المظلمة والذي يأخذ شيئا فشيئا الى الانسلاخ المعتدل عنها ؟ . كآبة دائمة وقطوب مستمر فلن نشهد في الريف جديدا ، ولن يتغير شعور يومنا عن أمسنا ولن نأمل كثيرا أن يكون غدنا خيرا من يومنا ، حياة ثابتة جامدة لاجدة فيها ولا حياة ، ما نراه اليوم نراه غدا ، الشمس تشرق من الشرق وتغرب في الغرب والحقول تخضر وتيبس والمواشي تذهب وتجي ، والفلاحون يعملون في الغيطان ثم يعودون ، والنساء يحملن جرائهن أو يعملن في الحقول مع رجالهن والاطفال في الحارات يتمرغون في التراب أو يلاعبون ! حياة مبقية على ثيابها خلال كل هذه الأجيال المتناسلة والعصور الطويلة ، فالرجل الذي تقابله اليوم قد لا يقابلك الا هو في الغد بنفس الصورة والشكل والوضع الذي رأيته عليها بالأمس واليوم ، والمرأة التي

تشاهدها اليوم في الغيط أو على التربة هي التي قد تشاهدها غدا
بنفس ملابسها وهيئتها ، ومشاهد الطبيعة وكل ما حولك من أرض
وسماء وماء وشجر هي التي شهدت بالأمس وتشهد اليوم وستشهد
غداً وبعد غد وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، والساقية التي
تمر بها الآن وتسمع غناها وموسيقيتها هي التي مر بها غيرك مئات
المرات وهي التي ستمر عليها أنت آلاف المرات لن تتحول عن مكانها
ولن تغير من موسيقيتها أو تجرد في غنائها ، والاصوات التي تسمعها
اليوم من أفواه الناس ومن غناء الفلاحين ومن الارغول والمزمار
والسلامية هي التي سمعتها بالأمس وهي التي ستسمعها غدا وغدا
وصاحبها اليوم هو صاحبها بالأمس بل صاحبها من منذ أعوام في صوته
وفي هيئته

وهكذا حياة الريف عندنا في كثير من بقاعها ونواحيها :
جمود لا يعدله جمود وقديم عريق في قدمه ، حياة لا يشعر فيها الغريب
أو المدني أو المستنير بحدة في الشعور أو حيوية في العواطف أو
اكتلاف في الميول ، وإنما يشعر أنه غريب عما حوله بنزعات فكره
وبخواطر نفسه وبآماله وآلامه وبميوله وبشهواته ، ويكفي كل هذا
لأن يجعل الانسان غريباً حقاً بكل معاني الغربة !
فكم نحن في حاجة الى ان نجعل من هذا الريف المهمل المنبوذ
جنات نخرج اليها ونجدد فيها حبنا وعواطفنا ونغذي منها مبادئ
عبادة الجمال !

وإذا كنا قد جهرنا بتنظيم حياة السكاني في الريف وبتجمله
بحيث يتفق مع ما نصبو اليه من مظاهر الحضارة والقوة والنظام
والجمال فلن يكون جهرنا بالاكثر من المستشفيات والمصحات وكل
وسائل الصحة في تلك الربوع الريفية المحرومة منها اضعف او اخفت
كلنا نعلم أن الامراض العديدة كالبلهارسيا والانكلستوما وامراض
الرمم وما اليها جميعا تغزو فلاحنا المسكين وتهدد حياته وتجعل من
لون بشرته ووجهه لونا حائلا باهتا مائلا الى الصفرة والى الذبول
والى فقد الدم والحياة وكلنا نعلم ان فقره وبؤسه يحولان بينه وبين
تطبيب نفسه ونعلم أنه حين يعجز عن وجود المال يضطر الى
الاستدانة ولو بفائظ فادح من جماعة المرايين وقد يضطر المسكين
الى بيع ما عنده من غلال أو مواش أو نعاج كل هذا نعلمه ونشاهده
كل يوم ونسمع أنات المرضى ونرى الوجوه الحائلة الباهتة والصدور
الشاكية ، فهل لم تبلغ بنا الى الآن الشفقة والرحمة بهذا المسكين
الذي يدر علينا الخير والنعمة والخصب من فوقنا ومن تحتنا ومن
يميننا ومن شمالنا أن نبني له المستشفيات التي تنقذه من غزوات
أمراضه العديدة ومن فتكها بحياته الغالية علينا جميعا ! لا لأنه
مصري تربطنا به رابطة الجنس واللغة والدين والمشاعر والاحساسات
وحدها ، بل لأنه أكبر وأشرف من ذلك ، بل لأنه انسان ؟ !
وبهذه المناسبة لا نود أن يفوتنا تسجيل تلك الظاهرة الطبية التي

أخذت تبدو تحت سماء مصر المحسنة الخيرة خلال هذه الشهور
الاخيرة بفضل جماعة من اغنيائنا نسوا جاههم وأنفسهم حيناً
وذكروا مصر التي من أرضها وتحت سمائها نشأ غناهم ونما وترعرع
وازدهر ، نعم يسرنا كل السرور ان برزت هذه الجماعة الفاضلة
من رجال المال في مصر تحمل راية الخير والاحسان . وتزعم
وتقود عملية البناء في بلد حديث العهد بالبناء ، والذي يسرنا أكثر
من هذا ليس العمل نفسه بل تلك الدلالات التي يمكننا أن نستقيها
منه ، فلقد بدأنا نقدر الاحسان وبدأنا نشعر ونأسى لجراحات
المعوزين ، وبدأنا نذكر أننا لا نعيش في هذه الحياة لأنفسنا
فحسب بل نعيش لأنفسنا وللجماعة وللوجود وللانسانية جميعاً ،
وبدأت قلوبنا تتفجر عن حب الخير لمن امضهم العوز وذآهم السؤال
وهدهم الفقر ، وبدأنا نفهم ونعرف أن الحياة ليست في جلب المال
وتكديسه واكتنازه فحسب ، وانما ليست في بناء القصور وانشاء
الرياض وحياسة الخدم وعبادة الطين والمال فحسب ، ولكنها أيضاً
في جبر القلوب الكسيرة وفي تضييد الجراحات الدامية وفي تخفيف
سيول الدموع الذليلة ، وفي اعلاء شأن هذا الوطن الذي درجنا على
أرضه وتغذينا من ثماره وارثينا من مائه ، وفي تهذيب ناحية من
نواحي الانسانية المعذبة بالبناء وبالصقل وبالتجميل
اذن ليست الحياة ان نأكل ونشرب فحسب ، ولكن أن

تشعر وأن نعطف ؟ أن يكون لنا بطون وأمعاء تحسن ازدراد
الطعام وهضمه ، وأنوف تتلذذ برائحة الطهي ، ولكن أن يكون لنا
قلوب تخفق بالحب وبالرحمة ، وأعصاب تتأثر للعوز وللذلة ، ونفوس
وأرواح تأنف الضعة وتقدس الكرامة وتعبد الجمال !

نسجل اذن والسرور يملاً نفوسنا ويغمر قلوبنا تلك الحركة
المباركة المشكورة في سجل مصر الحديثة ونأمل من كل قلوبنا أن
تفشي ثقافة الخير والاحسان في مصر الخصب والجود والخير والجمال
والاحسان ! ونستزيد تلك الحركة المباركة نشاطاً وعملاً وسعيًا
ونأمل أن يكون عندنا في مصر بين رجال الطين والمال غيرة ومنافسة
في عمل الخير والاحسان وفي عمليات البناء ، والانشاء ، كما يغارون
ويتنافسون في تكديس الاموال وفي بناء القصور وتوسيع الضياع !
ونريد ان نذكركم دائما بأن مصر الحديثة في حاجة الى بعض
أموالهم ليتم بعثها وحيائها ولتقف على أرجلها بين الأمم التي تشعر
بوجودها وتتيه بمجدها وفخارها ، وبأن الواجب يقضي عليهم أن
يتحملوا نصيبهم من الاصلاح في سبيل مصر وفي سبيل الانسانية
جميعا !

ونريد أن نذكركم أيضا بأن الأمم بافرادها لا بحكوماتها ،
فالافراد هم تلك الخيوط المنسوجة في ذلك الثوب المزركش المحبوك ،
وليست الحكومات الا أداة تقوم بارادة الشعوب ، وليكن لهم من

أغنياء أوروبا وأمير كاخير مثال يحتذي اذا كانوا يريدون ان يقوموا
بواجبهم ويلبوا النداء الصارخ، ونحسبهم فاعلين !

تأتي بعد ذلك مسألة التعليم وهي مسألة المسائل بلا جدل ، فلا
يزال الجهل أعدى أعدائنا ، ولا يزال هو المستعمر مصر لاجراب
انجلترا كما نطن ، وللتعليم في القرى أهمية خطيرة لأنه التعليم الاولي
وهو اللبنة الاولي في البناء التعليمي ، وأولى باللجنة أن تكون قوية
ممكنة ليكون البناء مدعماً متيناً ، ونحن وان فرحنا وشدنا بتلك
المدارس الاولية الالزامية الصغيرة التي خلقتها حياتنا النيابية ، فاننا
نحب ان نسجل هنا في تلك الرسالة الصغيرة أسفنا الكبير على
اندثار الكتاتيب القديمة اندثاراً نشاهده بخطوط خطواته بالتدريج ،
فلقد كانت هذه المدارس الحديثة عاملاً كبيراً في هدم هذه الكتاتيب
فهدمت بذلك تلك الصور والذكريات الجميلة الأولى في فطرتها
وفي بداوتها ، وكانت أشد خطورة من ذلك ، كانت العامل الاكبر
في الغاء التعليم القرآني شيئاً فشيئاً وتلك نكبة النكبات جميعاً !

نعم ! فاننا نسلخ شيئاً فشيئاً من الروح الديني في مدارسنا
الاولى ومن التعليم القرآني وابتدأ يطغي علينا وعلى عقول ناشئتنا
الصغيرة تلك السيول الجارفة من التعليم الحديث الذي هو الى
القشور أكثر منه الى اللباب والى حشو الادمغة أكثر منه الى
تنمية العقول وصقل النفوس ، ومن العجيب حقاً في هذه المدارس

الريفية الصغرى ان الصبي يتلقى من هذه القشور مالا يتفق مطلقا وعقله الصبي الناشئ ، فلست أدري كيف يسيغ عقل في سن السادسة أو السابعة مبادئ التاريخ الطبيعي أو التربية الوطنية ، ان هذه طفرة تشبه الجنون ، ومن اعجب العجب أيضا ان كثيرا من المدرسين في هذه المدارس الريفية لا يعرفون من هذه العلوم الحديثة الا ما في الكتب المقررة للتدريس ، وكان الله يحب المحسنين !

وكم نأمل ونحن نكتب هذه السطور أن تكون خطواتنا جميعا أكثر اتزاناً وريثاً واعتدالا حتي لا يتخمننا الطعام فننفجر

نأمل الا يذهب أبناؤنا واخواتنا في التعليم الأولي ضحية هذه البرامج المزوقة كما ذهبنا نحن ضحاياها ، ، نأمل أن تقضى على تلك الفكرة القديمة والتي لا يزال فيها بعض من الحياة الى الآن وهي أن الغرض من التعليم كما أراد السيد « دنلوب » تخريج الموظفين وكتبة الدواوين وسعاة المصالح والتعهد للمشارب والقهاوي وللاندية وللأرصفة بما يكظها ويملاها من شباننا !

ونأمل أن يكون التعليم القرآني هو الاساس الأول لهذه المدارس الالزامية لأن في القرآن الكريم كيانتنا ووجودنا وقوميتنا كما قال بحق أحد المستشرقين حديثاً !

ونحب هنا بمناسبة التعرض لمسألة التعليم أن نسجل رجاءنا الكبير لوزارة الزراعة بأن تجعل من الفن السينمائي وسيلة الى تعليم الفلاحين الطرق الحديثة في الزراعة التي توصل اليها الفن الزراعي

في أوروبا وأمريكا وتعلمهم بذلك زراعة محصولات جديدة وتعهد
الزرع بالحفظ والعناية وتعلمهم بخاصة فن الخضروات والبساتين
وتلك الصناعات الزراعية العديدة التي تنشأ مع الزراعة كعمل
المربات والزبدة وتجهيف الفواكه وعمل الحبال الى غير هذه
الصناعات الزراعية العديدة التي تمخضت عن الفن الزراعي حديثا
وتعلمهم بخاصة كيفية حفظ الزرع من آفاته الزراعية التي تفتك به
وتقضي على جزء كبير من محصوله

ونأمل مع تقدم الكهرباء أن يكون لريفنا نصيب منها حتى تتعدد
صناعاتنا الزراعية وحتى ينتقل الفلاح المصري من طور العمل
اليدوي الى العمل الكهربائي، وهذا الامل وان يكون لا يزال جنينا
فانه على كل حال أمل، وكل الاعمال انما كانت أولا مجرد احلام
وآمال!

وكم نحب هنا بهذه المناسبة أن نلفت نظر اغنيائنا وكبار
زارعنا الى زراعة الفواكه والخضراوات بدلا من الانغماس في
زراعة القطن والقمح وحدهما فان مصر فقيرة من هذه الناحية فقرا
مدقعا، وهم بذلك انما يزيدون في انتاجنا وفي خلق ربوع للمناظر
الجميلة، وبذلك يمكننا أن نزرع الذهب على حد تعبير الاستاذ
سلامه موسى

وما أحوجنا ونحن بلد حياته في الزراعة الى الجماعات التعاونية الزراعية ، خصوصا بعد ان عملنا كل جهدنا في تصوير حياة الفلاح المصري البائس البائسة حياته اقصى مراتب الفاقة والعوز ، فالحكومات تتجاهل وجوده وهى مع ذلك تعيش عليه ، والممالك يستبد به ويرهقه ويكاد يستعبده ، وكل ما حوله الب عليه ، ازاء هذه الحال المبكية الالمية كان من المعقول أن يكون له جماعات تشعر بشعوره وتفهم لغة آلامه ، تنجيه من استبداد المراهين وطغيان الممالك وتجاهل الحكومات وعداء الاقدار ومصائب الحياة ، وتنجيه أكثر من ذلك ، من شر جهله فيما يبيع ويشترى !

ولقد ولدت عندنا هذه الفكرة حوالي سنة ١٩٠٤ ثم مشت بعض خطوات وهى في طفولتها الاولى ، ثم عجزت عن السير ولم تقو على الحركة ، ثم عاودت نشاطها في عهدنا النيابي الحديث ، وأخيراً ركنت الى الدعة والى النوم والى الخمول

ولسنا ندري كيف تكون ارواحنا فى الزراعة ثم لا تتشرب نفوسنا الروح التعاونى ولا يكون لنا نظام تعاونى منظم قوى منتج؟ أمامنا بلاد التعاون الكبرى مثل دنمرك وألمانيا وفرنسا وانجلترا فلماذا لا نبحث عن أسباب نجاحها وأسباب فشلنا ونبنى نظامنا التعاونى على تلك الاسس القوية المتينة الخالدة ؟ لا ينقصنا شئ سوى الارادة وسوى الشعور بالحاجة الى هذه الجماعات ، ولكن مادامت حكوماتنا تنفض يدها من مساعدة هذه الجماعات ماليا

وأديا ومادام أغنياؤنا أو أكثرهم لا يعنون إلا بأنفسهم والا وراء
تكديس الاموال ثم بعثتها في مصافي أوربا وفي مشاتها فسنبقي على
مانحن عليه أبد الأبدين ، وسيبقى فلاحنا المسكين نهبة الطامعين
وضحية المرايين ولعبة في أيدي اللاهين ، وسيبقى المسكين ضحية
جهله فيبيع محصوله بنفسه بثمان بخس أو يبيعه له مالكة بثمان ان
كان عظيما فالذي يستفيد من ذلك هو المالك لا الفلاح ، فالملاحظ
في كثير من القرى أن الفلاح ليس له الا محصول الذرة والمحصول
الشتوي أما القطن فللمالك فان لم يسدد منه الفلاح إيجاره فيولي
وجهه شطر ما حصل عليه المسكين من الذرة والغلل وان زاد عن
الايجار كان الربح للمالك وحده فيكون بذلك الغرم على الفلاح دائما
وليس له من الغم شيء

وغير ذلك فان جماعة المرايين للصوص تعيش على جهله وعلى
عوزه وحاجته ، ومن النادر الا يحتاج اليهم خلال السنة خصوصا
في شهور الضنك والجذب ، وهنا يعطونه من جيوبهم ليأخذوا ويقتطعوا
من قلبه ويشربوا من دمه

ازاء كل هذا كان من طبيعة العدل أن يكون لنا جماعات
تعاونية تأخذ بيد الفلاح المصري من هذه الوهدة وتريه النور
وتشعره الراحة والطأنينة وخصوصا جماعات التوريد والمصارف
التعاونية ، ولتنجح هذه الجماعات يجب كما قلنا ان تنزعها أولا الحكومة
ولو من طريق الاشراف أو المراقبة أو المساعدة وان تعمل الدعايات

الكافية لبث الروح التعاوني بين الفلاحين بواسطة جماعة من المتعلمين وبواسطة نشرات دورية عن الحركة التعاونية ، ولكن نرى أن تكون الخطوة الأولى في ذلك استشعار الفلاح المصري أولاً بفائدة التعاون ، لأنه بدون ذلك لن يقوم للتعاون في مصر قائمة ، وهذا الاستشعار يكون بالتعليم وبالمحاضرات من رجال الزراعة ونشر المعارف الأولى للنظام التعاوني وطرقه في غرب أوروبا

ويوم يكون لنا هذا النظام يوم نشعر ونؤمن أن الفلاح المصري بدأ يرى بعينه النور ويتصل بالوجود وبالعالم ، وهذا العمل من واجب كل مصري تحركه الشفقة بوطنه وباخيه الفلاح ، وهنا نقول لكل مصري ما قال « ولنجتون » لجنوده : « ان مصر تطلب من كل منكم أن يقوم بواجبه » !

ولقد آن الاوان لأن يكون لنا صناعة زراعية فمن العار كل العار ان نكون بلد زراعي ثم نشترى الجبنة والزبدة من يد الغربيين ، واذا كان البعض قد قال ان مصر لا تصلح للصناعة فان هذا القول تخدير للأعصاب ويراد به قتل مصر فلسنا نعرف لشعب حياة موفورة صحيحة بدون صناعة ، خصوصاً وان الصناعة الآن هي محور النظام الاقتصادي في كل ربوع العالم

إذن من أول واجباتنا ان ندعو الى الصناعة الزراعية في مصر كصناعة الالبان وعمل الزبدة ، ويمكننا أن نتخذ « ديمرك » في

ذلك مثالا نحاكه ، ثم صناعة الحبال بعد ان ندخل في مصر زراعة
« القنب » ، ثم عمل المرببات وتجهيف الفواكه حتي يكون هناك
بذلك مجال فسيح لعمل النساء الى غير هذه الصناعات العديدة التي
أشار بها تقرير لجنة التجارة والصناعة في سني الحرب والتي بعثها
من مرقدها أخيراً بنك مصر في تقريره القيم الجديد يرفع به صوت
مصر الى الحياة والى البعث والى القوة والى الانتاج

نعم آن الأوان أن نخطو في عملنا خطوات جريئة وان نقطع
تلك المراحل التي قطعها العالم الاوروبي والامريكي وان نستخدم
ثرواتنا المكتنزة المدفونة المجهولة والا نعتمد مطلقاً على الزراعة
وحدها والا حق علينا الفناء ان عاجلاً وان آجلاً

والماء ! ليس ماء ما يشرب الفلاح المسكين ولكنه عكارة
وطين وميكروبات في مستنقعات مليئة بالجيف والنتن ، ولن ترضى
هذه الحال السيئة انساناً له قلب وضمير

لقد سمعنا بالمشروعات الحديثة حول تكرير الماء في القرى
وحول ردم البرك والمستنقعات ونخشى كل الخشية ان يموت الجنين
في بطن أمه قبل أن يظهر الى عالم الوجود ، فقد تعودنا في مصر أن
نسمع كثيراً من معمل المشاريع الميته ثم لا نرى شيئاً

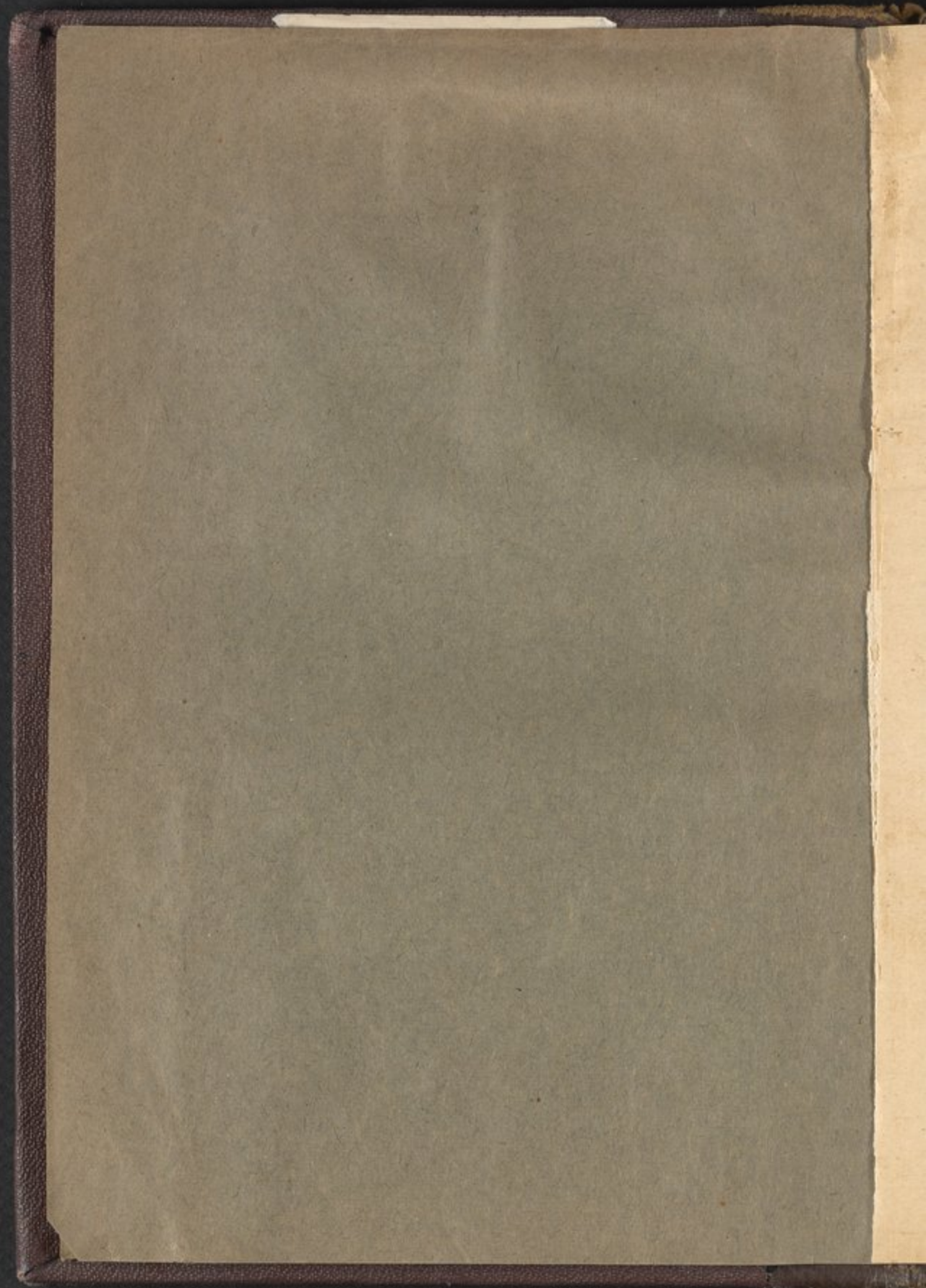
ولعلنا في هذه المرة نرى الجنين يمجو ويرتع ويلعب ويكافح
الحياة والوجود

وبمناسبة الماء نريد ألا تفوتنا تلك الملاحظة التي نلاحظها في كل ربوع ريفنا وهي تلك الشكوى الصارخة من سوء التصرف في المياه ، وبآلياتها تقف عند حد الشكوى والصراخ ، اذن هان الامر ، ولكن هي أخطر من ذلك فان الفلاح المصري اذا ما عزت عليه المياه وكثيراً ما تعز أخذ يلعن في الحكم المصري وفي الموظفين المصريين وتدرج من ذلك الى الاشادة بالحكم الانجليزي وبالموظفين الانجليز الذين كانوا يحسنون تصريف المياه وتوزيعها بعدل بين الناس ، ولا يمكننا مطلقاً أن نلوم الفلاح على هذا لأن في الماء حياته ولأن الموظفين المصريين غالباً يتخذون نحوه خطة لا تساعد على الألفة والعدل والطمأنينة ، وهكذا يهدمون ما بنى ويخمدون هذا الشعور الوطنى البحت الحى الذى خلقته فى قلوبهم تلك النهضة الكبرى المباركة ! فعسانا نقبل على عهد جديد حى ، وعسانا نتعلم كيف ننظر الى الفلاح وكيف نحترمه وتقدره !

والآن يجب أن نختتم ونقول ان هذه الآمال التى ذكرناها وهذه الشكاية الصارخة التى بجنا بها ليست الا صدى لآمال الفلاح المصري ولشكاياته ولجراحاته ، وليست الا جزءاً مما يدور بخلدنا جميعاً من آمال لانهاض البلد وهدم كل مالا يتفق ونهضتنا ولانشاء جيل جديد يشعر ويضطلع بالمسئوليات الكثيرة الملقاة على كاهله وبآثر كات السيئة التى خلفها لنا السلف والآباء وقالوا : « وبعدنا الطوفان » !

نوجه اذن نداءنا الصارخ الى كل مصري حر كريم ، الى كل
من تحرره ولو ايسر عوامل الرحمة والانسانية ، ان يوجهوا أنظارهم
جميعا الى الريف المصري النائم المنبوذ ، فهناك الفقر فاقر فاه ،
وهناك الجهل جاثم في مربضه وناشر أجنحته السوداء ، وهناك ضروب
البطش والجور على أحدث طراز ، وهناك تلك البقية الباقية من عصور
الممالك المنالكيد ، هناك يجب أن نبدأ بعملية الهدم لنشرع في
عملية البناء ... !

الفلاح المصري يناديكم يا أنصار « حقوق الانسان » !



AUC - LIBRARY



DATE DUE

15 MAY 1968

A.U.C.

15 MAY 1968

14 100

11 DEC 1986



1 0 0 0 0 0 6 1 9 0 8

